

جميع حقوق الطبع والنشر والتصوير
والاقتباس والترجمة والنقل محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - يونيو ٢٠٠٦م
ج١/أول

رقم الإيداع

٢٠٠٦ / ٩٠٨٤

الترقيم الدولي

٦-٧٠-٥٢٧٣-٩٧٧

سلسلة الفتوحات العزمية

(١٩)

أُبْعِدُ مِنْ
تُمْبُكْتُو

لجنة البحوث والدراسات
بالطريقة العزمية

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
الافتتاحية:	٤
حال المجتمع الإنساني قبل الإسلام	٦
فضل الإسلام على أوروبا وأمريكا	١٣
على من نرجع باللائمة؟	١٧
تمهيد: لماذا يستهدفون ثورة الفاتح؟	٤١
منجزات جمعية الدعوة الإسلامية	٤٤
رحلات القائد الجهادية	٥١
أبعد من تمبكتو: للدكتور محمد أحمد الشريف	٦٠
تمبكتو محط أنظار الطامعين	٧١
دور اليهود في تمبكتو	٨٥
جهاد القائد في أفريقيا	٨٧
العولمة فخ للتغريب ومحو الهوية	٩٤
الإسلام لبناء عالم جديد	١٠٠
الخاتمة: لشيخ الطريقة العزمية	١٠٧
التصير بالمساعدات	١٠٩

الافتتاحية

الحمد لله رب العالمين، دينه الإسلام الذى اصطفاه لنفسه، واصطنعه على عينه، وأصفاه خيرة خلقه، وأقام دعائمه على محبته. أذل الأديان بعزته، ووضع الملل برفعه، وأهان أعداءه بكرامته، وهدم أركان الضلالة بركنه.. ثم جعله لا انفصام لعزوته، ولا انقطاع لمدته، ولا عفاء لشرائعه.. جعل فيه منتهى رضوانه، وذروة دعائمه، وسنام طاعته.. فشرّفوه واتبعوه، وأدوا إليه حقه، وضعوه مواضعه.

والصلاة والسلام على حبيب الله ومصطفاه، الذى بعثه بالحق حين دنا من الدنيا الانقطاع، وأقبل من الآخرة الاطلاع، وأظلمت بهجتها بعد إشراق.. جعله الله بلاغا لرسالته، وكرامة لأمته، وربيعا لأهل زمانه، ورفعاً لأعوانه، وشرفاً لأنصاره.. سيدنا ومولانا محمد.

اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله وانظر إلينا يا إلهى، بما به علو الكلمة، وحياة السنة، وإذلال الكافرين، ومحو المضلين، وآونا يا إلهى فى حصون حفظك، وبساتين

رأفتك ورحمتك، وعطفك وبرك وإحسانك.. آمين يا رب العالمين، وبعد:

إخواني في الله وأحبابي في سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ وآله:

الحضارة نبتة عظيمة ضاربة الجذور فى النطاق الجغرافى الذى قامت على أرضه الدول العربية الإسلامية وتلألأت فى سمائه أنوار الحضارة الإسلامية التى لم تنسب حضارة لدين سواها. فقبل ظهور الإسلام بقرون طويلة عرفت المنطقة حضارة وادى النيل، وحضارات وادى دجلة والفرات، وحضارة الشام، وحضارات اليمن، وحضارة تونس القرطاجنية، وحضارات البحرين، وحضارات فارس، وكان لحضارات مصر والعراق والشام بصفة خاصة أثر هائل على الحضارات الأخرى التى نشأت فى حوض البحر المتوسط كحضارة الحثيين فى آسيا الصغرى والحضارة المينوية فى كريت والحضارة الإغريقية والحضارة الرومانية. وقد استمدت الحضارة الإغريقية- وهى أهم الحضارات القديمة التى قامت على أرض أوروبا- مقوماتها وعناصرها من هذه

الحضارات الثلاث، وكانت الحضارة الإغريقية وسابقتها الحضارة المينوية فى كريت أكثر ارتباطا بمنطقة شرق البحر المتوسط وبساحليه الشرقى والجنوبى الشرقى منها بأرض القارة الأوروبية؛ وإن جاء الأوربيون فيما بعد ليتشددوا بأمجاد الحضارة الإغريقية، وليغالوا فى الانتساب إليها والتمسح بها، بينما هى فى واقع الأمر رقعة من نسيج حضاراتنا العربية القديمة رفيت فى معطف الهمجية الغربية بخيوط الارتباط الجغرافى والسالى.. وهى خيوط لا علاقة لها على الإطلاق بخصائص النسيج الحضارى!..

وقبل ظهور الإسلام كان التدهور والاضمحلال قد أصابا كل الحضارات العظيمة التى ظهرت فى المنطقة.

حال المجتمع الإنسانى قبل الإسلام:

يقول الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم رحمته الله فى كتابه (وسائل نيل المجد الإسلامى): لم أكن مغالياً إن قلت إن المجتمع الإنسانى قبل الإسلام كان أشبه بمجتمعات الحيوانات التى تتعاون على بقاء الحياة، كالممل

والنحل وأنواع الطيور، فكانت عيشته كعيشتها، يتعاون أفراده لتبادل المنفعة ودفع المضرة. والأصل فى المجتمعات الإنسانية البداوة فى كل الأمم، وكانت حالة البداوة فى المعيشة حالة تنازع، تسود فيه القوة، وكان أغلب تلك المجتمعات جاهلية، تتنازع الآثار الجوية، وتزاحم الوحوش، حتى ارتقى بعض بنى الإنسان، فأسس المدن، وأرسل الله الرسل ليبينوا للناس ما به نيل السعادتين بقدر ما يناسبهم، فكان ما يدعوهم إليه الرسل يخالف عاداتهم ومألوفاتهم، فوقع بينهم وبين الرسل ما ذكرته التوراة فى أسفار الأنبياء، لأن الناس تعودوا الظلم والجور والطغيان، مع أن الإنسان دينى بالفطرة، ولكن قوة الحس والجسم جعلت الإنسان لا يقبل إلا ما يجانس حسه وجسمه، فأبى بنو الإنسان أن يعبدوا إلا ما يحسونه ويمسونه مما يصنعونه بأيديهم.

وتوالت الرسل يدعون إلى عبادة العلى العظيم المنزه، فقتل منهم من قُتل، وكُذب منهم من كُذب، فكان الناس مع الرسل فى حرب عنادى، فلم ينتفعوا من الرسل بعلم نافع،

ولا بعمل رافع، اللهم إلا فن بناء السفن الذى تعلموه من سيدنا نوح عليه السلام، أو علم صناعة السيوف والدروع وإتقان البناء الذى تعلموه من سيدنا داود عليه السلام، لأنه هو الذى لأن له الحديد، وبنى بيت المقدس، وقام سيدنا سليمان عليه السلام فاستخدم الفنيقيين فى إتقان الصناعات اللازمة للمدن المتعلقة ببناء المنازل، والنجارة والبرادة، ثم تعلم تلاميذ سيدنا إدريس عليه السلام فن صنع الملابس وما يلزمها من النسيج والغزل والخياطة، وفن الطب وعلم خواص النباتات.

وعاش الإنسان حتى فى زمن الرسل على جاهلية عمياء، فعبد بنو إسرائيل العجل فى زمن الكليم عليه السلام، وقال بطرس - أكبر تلاميذ سيدنا عيسى عليه السلام -: أنت الله. فضغب عليه السلام، حتى قال له: ستكرنى بعد.

كانت المجتمعات الإنسانية قبل الإسلام بين جاهلية عمياء، أو بين أمة ضالة، أو أمة مبدلة للحق، أو أمة فاسقة، فكانوا يعبدون الأحجار المنحوتة بأيديهم، أو الأفلاك المشهودة لهم، أو الملوك أو الرسل أو بعض

الحيوانات، وتلك حقائق لا تحتاج إلى دليل إلا من وفقهم **اللَّهُ** من تلاميذ الرسل (عليهم الصلاة والسلام) فى حياتهم، وهم قليل، ثم بدل من بدل، وارتد من ارتد بعد الرسل.

أنا لا أنكر أن فن البناء وفن الطب وفنون الزخرفة والتصوير والنقش كان بالغاً مبلغاً فى الشرق، أعجز صناع زماننا هذا فى أوروبا وأمريكا، وآثار المصريين والبابليين والآشوريين، واليمنيين والفرس والهند، لا تزال محل إعجاب كبار المخترعين، ولكن كل تلك الآثار شيدت على أسس الظلم والنظام، والبغى والاستئثار، لأن الأمم كانوا يجلون الملوك إجلال الربوبية. مكث الإنسان دهوراً طويلاً فى الجهالة العمياء تحت تسليط السلطة الظلومة الغشومة، لا يعلم من نفسه إلا أنه مقهور لأفراد زعموا أنهم آلهة، أو أبناء الآلهة، ومن قرأ تاريخ المصريين منذ خمسة آلاف سنة يعلم مقدار المجتمع الإنسانى العلمى العملى من تقديس الأسر المالكة، وكان الأمر فى الهند كما هو فى مصر، فإنهم كانوا يعبدون

الثالوث المقدس، وهو صنم يمثل إنساناً ذا ثلاثة رؤوس: الإله وابنه وروحه، وترجمة إبرهة الهندى وبوذا وغيرهما بيان لما كان عليه الإنسان.

لم تكن تلك الأحداث فى الأزمنة القديمة فقط، بل كانت موجودة بحقائقها فى زمان ظهور الإسلام، فكانت الصين تسمى ملكها ابن ماء السماء، والفرس يسمونه ملك الملوك، أو شاه، وكانت الدولة الرومانية تستعبد الشرق استعباد الإنسان للبهائم، وكل ما وصلوا إليه من العلوم إلى ظهور الإسلام كان محصوراً فى فن الطب، وتدبير المنزل والمدن، وطرق استعباد الأمم بالقوة القاهرة، والتفنن فى سلب ما فى أيديهم، وشئ قليل من علم النفس، ومن إثبات القوة القاهرة الغائبة على الحس، خبطوا فيها خبط عشواء، لم يركنوا إلى ركن من العلم مكين، ولم يثبتوا ما ادعوه بأثارة من علم يقبلها العقل الكامل.

أقول خبط عشواء لأن الأمة التى برعت فى هذا واشتهرت هى الأمة اليونانية، وكانوا خدماً عند المصريين، يراهم المصرى نجاسته، لأن العلوم التى

كانت عند المصريين كانوا يرجعون فيها إلى الخليل عليه السلام، وإلى يوسف الصديق عليه السلام، قبل موسى عليه السلام بزمن طويل، ولكن تغيرت وتبدلت بسبب الأطماع والحظوظ التي تدعو إليها نفوس الملوك لاستعباد الشعوب، بسلب ماديهم من الفنون والصناعات والآداب، وتجريدهم مما يجعلهم يدفعونهم عن أوطانهم.

كانت عند المصريين كانوا يرجعون فيها إلى الخليل عليه السلام، وإلى يوسف الصديق عليه السلام، قبل موسى عليه السلام بزمن طويل، ولكن تغيرت وتبدلت بسبب الأطماع والحظوظ التي تدعو إليها نفوس الملوك لاستعباد الشعوب، بسلب ماديهم من الفنون والصناعات والآداب، وتجريدهم مما يجعلهم يدفعونهم عن أوطانهم.

ظهور الإسلام وأثره على تقدم الإنسانية:

نظر الإنسان إلى الكون نظرة رجل بصير، حكيم عالم في منزله الذي صار له التصرف المطلق في كل ما فيه من المنافع والخيرات، فساح عقله فيما حوله للانتفاع بنعمة الله المخزونة له، ليعرف ربه فيشكره على نعماءه، ولم يقف المسلم عند هذا الحد، ولكنه جاهد نفسه بعد كمال التصديق، بما بلغه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فزكت نفسه، وساحت روحه في العالم الأعلى، فتجلت له حقائق هذا العالم، فعلم من عجائب القدرة، وغرائب الحكمة، ما جعله يفرده ربه بالألوهية دون غيره، ويتخلق بأخلاقه العلية من الرحمة والكرم، والعلم والعفو، والمصارعة إلى عمل الخير، حتى

ظهر الإسلام فمحا ظلمات الجهل عن عيون العقل، وأيقظ من أسلم من نومة الغفلة، فعلم كل مسلم نفسه ونشأتها الأولى، والآخرة وحكمة وجود الإنسان، ثم فككت عنه قيود الذل لنظرائه من أهل الظلم، والذل لبعض الآثار الكونية، حتى تحقق من نفسه أن كل شيء في السموات والأرض خلق له، وأن الله منحه القوة التي يستخدم بها كل شيء لانتفاعه مما هو في السموات والأرض، من جمادات بأنواعها، وحيوانات ونباتات بأنواعها، بل والكواكب، حتى بلغ بما تعلمه من أصول الإسلام وفروعه أن الملائكة خلقت له، وظهر له أنه باتباعه للنبي

(١) (الجاثية: ١٣).

بلغ من اليقين والشهود مبلغاً كان فيه أشبه بالرسول (عليهم الصلاة والسلام)، فخرق **اللَّهُ** له العادة وأكرمه بما جعله به إماماً عظيماً، وسيداً مطاعاً، وهم كثيرون في كل زمان.

فضل الإسلام على أوروبا وأمريكا:

لم تتحصر خيرات الإسلام على المسلمين، بل تعدتهم إلى جميع الأمم، وكان أكثر الناس انتفاعاً بعلوم الإسلام أوروبا الحديثة وأمريكا، فإنهم انتفعوا بعلوم الأندلس واكتشافاتهم التي أسعدت بنى الإنسان، وبالعلوم التي سلبوها من المكاتب الإسلامية في الحروب الصليبية، وما أخذه نابليون من خزائن الأزهر الشريف، وقد أهمل المسلمون تحصيل تلك العلوم المفيدة، وقضت سياسة الملوك منهم أن يشغلوا العلماء بدرس الأحكام مجردة عن الحكمة، وعن العلوم التي فرضها القرآن من النظر والتدبر والفكر، وعلوم الأخلاق، وعلوم النفس، ومعرفة **اللَّهُ** تعالى، وعلوم تدبير الفرد والمنزل والمدينة، والمجتمع العام، والعلوم العقلية التي بها فتح كنوز المادة،

ومعرفة خواص كل نوع منها، وأنها خزائن للنعم، يفتحها العلم والعمل، وقد فرض **اللَّهُ** كل تلك العلوم وأوجبها على كل مسلم في القرآن، قال سبحانه: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿فَامشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ (٣). وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤).

فكان المسلم المتمسك بالدين يحيط بكل أنواع العلوم، ويعتقد أنه يجهد من كمال ربه وقدرته وحكمته بقدر ما يجهد من أي علم من العلوم، وكانوا يولون أهل العلم الولايات، فيكون الوالي إماماً وقائد الجيش، وطبيباً وعالماً بسير الأفلاك وتغيير الفصول، وقد نظر وال من الولاية مد البحر - وكان يجهد المد والجزر - فقال: هذه تكفيننا

(١) (يونس: ١٠١).

(٢) (الملك: ١٥).

(٣) (التوبة: ١٠٥).

(٤) (الزمر: ٩).

صيفتنا، ظناً أنه ماء عذب، فبلغ الخليفة فعزله لجهله بتأثير الكواكب على البحر... لم يبلغ الإنسان مقام الشرف والمجد إلا بالإسلام، وقد ترك المسلمون العمل بوصايا الإسلام، فذلوا لمن كانوا أتباعاً لهم، وترك غيرهم دينهم فعزوا ورقوا في الأرض لأخذهم بأعمال المسلمين الكونية. وإنى على يقين أن تلك الأمم قريباً يظهر لها الحق جلياً فتسارع إلى الإسلام، وكيف لا؟ والإنسان مفطور على حب الحرية والمساواة، ومجبول أن يحكم على الأشياء بعقله، وكلما أظهرت الصناعات والفنون ما كنزه **اللَّهُ** للخلق في المادة كلما فكت الأغلال من عنق العقل، فحكم أن الدين الإسلامى هو الدين الحق، وأن ما سواه لا يقبله العقل.

ومن حكم أن الدين الإسلامى لا يحث على تحصيل العلوم كذنبه الحقائق، والواجب على المسلمين فى هذا العصر بعد أن شهد أعداء الدين بأحقيته، وسارع فيه كثيرون من أمريكا وأوربا، أن يسارعوا إلى الحق والعمل به، ليكونوا أئمة لمن ستكشف لهم أنوار الإسلام قريباً،

بل وليكونوا متمتعين بالحياة الإسلامية الفاضلة، مسارعين إلى نيل السعادة الباقية، فى جوار الأخيار ممن عملوا بالإسلام ونشروا فضائله وآدابه وأصوله بين الأمم، والأمر سهل، و**اللَّهُ** لا يضيع أجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

هذا وما هى العلوم التى عاداها الإسلام؟ هل هى ما حصلته أوربا من العلوم التى جعلتهم يتقنون فى استعباد الخلق وإهراق الدماء، وحرمان الأمم من مرافق الحياة، وسياسة ظاهرها إصلاح وفرح، وباطنها فساد وترح، مما حكم بوحشيته كثير منهم، وقامت أحزاب تقبح هذا العمل وتثبت أنه نهاية الظلم والطغيان؟ إن كان القائل بمعاداة الإسلام العلم يرى أن الإسلام عدو تلك السياسة فصدق، لأن الإسلام أسس مع الرحمة، فإذا لم تتيسر فعلى العدل والإيثار والتعاون على الخير، بعد توحيد **اللَّهُ وشكره على نعماءه، والمسارة إلى تحسين الفضائل النفسانية، ومن ظن أن الإسلام عادى علماً من العلوم النافعة، أو فناً من الفنون المفيدة للعامة، أو صناعة تجعل الإنسان يعيش مستريحاً، فقد جهل الإسلام، أو كذب على الحقائق،**

والجاهل إذا حكم فحكمه عليه، والعدو إذا حكم فشره راجع إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (١).

قال العربى:

ومهما يكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم

على من نرجع باللائمة؟:

أعلى أنفسنا لتقصيرنا فى تحصيل ما فرضه علينا الإسلام لنفوز بالسعادتين؟ وإهمالنا فى تزكية أنفسنا واستخدام عقولنا كما أمرنا الإسلام، فأنتج التقصير والإهمال لقس النفس، ومرض العقل، وانحراف الخيال، وضعف الوهم، وانضواء الفكر، واضمحلال الإدراك، حتى صار الإنسان أضل من الأنعام، وشرا من الشيطان، فأصبح أهل التقصير والتساهل ممن يدعون الإسلام كالبهائم الراتعة، يقودهم العدو إلى مهاوى الهلكة، فيقلدونه

(١) (فاطر: ٤٣).

تقليد الأعمى، ويتبعون كل ناعق، فإذا قال قائل: حرية أوروبا وحضارتها وعدلها وعلومها وصناعاتها، أنكروا ما هم عليه من الفضائل والكمالات، وسارعوا إلى التقليد.

أم نرجع باللائمة على الدين وهو براء من أعمالنا؟ وقد أثبتت سماحته الرحمة، فحفظت الأمم المخالفة للإسلام برحمة الإسلام، ورفعت علومه العقول إلى مستوى انكشفت لها فيه خواص المادة، وآيات قدرة الله وحكمته. اللهم إن دينك الحق، به الفوز بالخيرين، فأسألك يا رب العالمين أن توفقنا للعمل به، والتعصب له رحمة بالمجتمع الإنسانى الذى أصبح كفة من الناس على سفينة أحاطت به الزوابع، وهاج عليها البحر؛ ببركة علوم أوروبا الحديثة التى يفتخر بها من جهل دينه.

أخذت أوروبا عن المسلمين نشاطهم فى الصناعة، ومسارعتهم إلى فتح كنوز المادة، وشجاعتهم، وتركت العقيدة الحقّة، والعبادة التى تجعل المسلم ذا رحمة وعفو وإحسان، وإيثار لغيره، وتركت الأخلاق الفاضلة التى بها حياة المجتمع فى حرية ومساواة وأمن على النفس والمال

والعرض، فخبثت النفوس، وانكسفت أنوار العقول، وتسلبت الحس على النفس والعقل، فهبط الإنسان إلى رتبة البهائم شهوة وإباحة، والسباع جراً ووقاحة، والشياطين كيداً وخبثاً، فاستخدم العقل والنفس لهذا القصد حتى انمى شرف الإنسانية في نظرهم، وحكموا أنهم قررة ارتقت- كما قال دارون- تكديباً للكتب السماوية، وكذلك تفعل العلوم التي يتفاخرون بها، والعلوم- ياقوم- صور ترسم على جوهر النفس، تجذبها إلى الارتفاع عن الإنسانية إلى الفضائل الملكوتية، بل وإلى ما فوق ذلك من التخلق بأخلاق الله.

ما هي تلك العلوم التي تفاخر بها أوربا!؟

كلنا نعلم أن كثيراً من أنواع الحيوانات أتقن فن تأسيس المنازل على قدر احتياجه، كالنمل والنحل والطيور والأرانب وغيرها، وأتقنت تدبير المجتمعات كذلك، كالنمل والنحل والطيور والأرانب والقررة والأسماك، وأتقنت فن دفع العدو لتحفظ منه إما بحرب أو بهزيمة

أمامه، وأتقنت طرق تحسين قوتها، وقد امتاز بعض الحيوانات بفضائل عجز عنها علم أوربا، كالوفاء في الكلاب، والغيرة في الديكة والطيور والسباع، وكالحياء من عمل المباح كالإبل التي تنتستر في أوقات ملامسة الذكر للأنثى، وابتقان فن تدبير المنزل وحسن تربية ما يتناسل منها مثل الحمام والأرانب والنحل وغيرها.

إذا تقرّر هذا فعلم أوربا إنما هي فنون اقتضتها الحقيقة الإنسانية التي هي أكثر الأنواع الحية ضروريات وكماليات، ولا فخر لأوربا بما نسب إليها من الفنون أو العلوم، فإن الإنسان من خمسة آلاف سنة وأكثر أتقن من الصناعات في تشييد القصور الفخيمة وإبداع الأثاث المنزلية التي أعجزت كبار المخترعين في الغرب، وها هي آثار الملك توت عنخ آمون التي اكتشفت بقبره في الأقصر معجزة كبرى تدل على أن أوربا تفتخر بما يخجل.

يا قوم: هل تبرج النساء بالزينة، ولبس الثياب القصيرة، التي تظهر العورات وإباحة السفور للنساء،

فتأخرنا في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ
الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ
الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ (٢)
ﷺ، فإن وعده - سبحانه وتعالى - تحقق بجمال معانيه
جلياً مشهوداً لعيون الرؤوس، ملحوظاً لقوى النفوس.
وكيف لا؟ وقد أنزل ﷻ القرآن على نبيه صلوات ﷻ
وسلامه عليه، فافتتح دعوته ﷺ بالعرب الذين هم أولى
الناس به وأحق الناس باتباعه، لأن ﷻ سبحانه وتعالى
بشر في الأسفار الماضية والصحف السابقة أنه جاعل من
ولد سيدنا إسماعيل أمة عظيمة، في صحف سيدنا إبراهيم
ﷺ، وصحف سيدنا موسى ﷺ، فكان العرب أفق
مشرق هذه الشمس الإلهية، ومسطح أنوار تلك الأسرار
الربانية، لتكون آية ﷻ تعالى جلية للعقول، واضحة

(١) (الأعراف: ٩٦).

(٢) (النور: ٥٥).

والتفنن في آلات وأدوات الطعام والشراب واختراع
المصبغات من الثياب، وصرع العقول تحت أقدام الشهوة
البيهيمية، وقتل الحياة الإنسانية الفاضلة بالخمور
والمخدرات، ورجوع الإنسان إلى المرتبة البهيمية بحالة
يخجل منها بعض أنواع الحيوانات بجلوس النساء والبنات
في الأندية العامة، واشتراك الرجال والنساء في الرقص،
وقتل الغيرة بسيف البلادة الجمادية، واختراع ما يعين
على ذلك، هذا هو العلم الذي تفتخر أوربا، ويتمشدد
بمدحها عليه من لم يميز بين الفضيلة والرذيلة؟.

اللهم رحماك ببنى الإنسان، يا قوم ارجعوا إلى الإسلام،
وتداركوا الأمر بترك الاستسلام للعدو، وانظروا بعيون
الفكرة، وحكموا العقول لتشرق أنوار الحق فتمحق ظلمات
الباطل، فإن الحق أبلج، والباطل لجلج، والمؤمن يكفيه
قليل الحكمة.

تركت أوربا دينها فتقدمت، وكن تركنا ديننا فتأخرنا:

لقد ترك القوم دينهم فتقدموا في الدنيا، وتركنا ديننا

للنفوس، تتجذب بها القلوب التي أعدها اللهُ تعالى لفهم أسرارهِ العلية، وحكمهِ الجليلة، وكيف لا؟ والعرب إذ ذاك كانوا في جاهلية عمياء، لا يجهل عاقل ما كانوا عليه من الأخلاق السبعية.

كانوا يؤكلون ولا يأكلون، تفرقت أهواؤهم، واختلفت شعوبهم، وتباينت مقاصدهم، كأن العقل إذا نظر إليهم يحكم بالبدئية أن من المستحيل اجتماع تلك الآراء المختلفة، والحظوظ المتباينة، والمفاسد التي صارت عادة لهم وسنة، كان كل فريق منهم يناوئ الآخر، لا يجتمعون على قائد لهم، ولا يتحدون لرئيس ولا يقبلون أن يكون لهم سلطان يقهرهم، أو ملك يجمعهم، تلك حقيقة بدئية لا يجهلها أحد له إمام بمبادئ العلوم، فقام بينهم رسولُ اللهِ ﷺ، وهم على تلك الأحوال المنكرة، والأخلاق الوحشية، فكانوا في التفرقة كقطع الزجاج التي لا تلتحم، أو كالنار والتلج اللذان لا يمتزجان، فما مضت فترة من الزمن إلا وولدوا ولادة جديدة، فكانوا أرواحاً بعد أن كانوا أشباحاً، وحكماء حلما بعد أن كانوا في جاهلية عمياء، فتح

اللهُ أقفال قلوبهم ففقهوا، ورفع الستار عن عيون بصائرهم فشهدوا، فجمعهم اللهُ على الهدى بعد التفرقة، وعلى الحق بعد الضلال، وصار اللهُ معهم، وفتح لهم باب بركات السماء، بما جملهم اللهُ تعالى به من الحكمة والبيان والنور والتبيان، وبركات من الأرض بما مكن لهم في الأرض بالحق، جعل اللهُ لهم الأرض ميراثاً فملأوها نوراً وعدلاً وسادوا العالمين كما يسود الأب الرحيم فيجملهم بالبر له، والصلة لأقاربه بمكارم أخلاقه وجمال أعماله، ودام هذه المجد لهم بقدر تمسكهم بروح القرآن الكريم فكان مجدهم وعزهم وسعادة المجتمع الإنساني وخيره بقدر تمسك المسلمين بالقرآن، وعملهم بسنة رسولِ اللهِ ﷺ وهدى أئمة السلف الصالح من أئمة الهدى ممن صدقوا ما عاهدوا اللهُ عليه.

نظر اللهُ إلى المسلمين نظرة عناية ومعونة، لأنهم نظروا إلى اللهُ بقلوب ملؤها الخشية وأرواح قوامها الرغبة فيما عنده سبحانه وتعالى، والرغبة من جلاله العلى، ومزاجها الحنين إلى انتشار العالم أجمع من

مساخط **اللَّهُ** تعالى ومواطن غضبه، فواجههم **اللَّهُ** تعالى بوجهه الجميل، وقبل منهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم. لم أقل كانوا أنبياء معصومين، ولا ملائكة مطهرين، بل كانوا يذنبون كما نذنب، ولكن جملهم **اللَّهُ** بجمال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (١)، وبنور قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ (٢). فكان **اللَّهُ** تعالى ينظر إلى قلوبهم معقودة على التوحيد الحق، والإخلاص لذات **اللَّهُ** تعالى وحسن النية في العمل لوجه **اللَّهُ** تعالى، وإن كانت أبدانهم تتقلب في بعض الأحيان في المعاصي، فكان ظاهرهم وإن تنجس بالمعاصي ولكن سريرتهم كانت مشرقة بأنوار التوحيد والإخلاص، والعزة بالله، سر قوله

(١) (الأعراف: ٢٠١).

(٢) (آل عمران: ١٣٥).

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١). فكان **اللَّهُ** تعالى إذا نظر إلى تلك القلوب المنعقدة - على النور الحق تقبل منهم أحسن ما عملوا، ومعلوم أن ذرة من أعمال القلوب خير من أمثال الجبال من أعمال الجوارح، لأن أعمال الجوارح المجردة عن أعمال القلوب لا ينظر **اللَّهُ** إليها قال **اللَّهُ** تعالى: ﴿إِلَّا مَن أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (٢) وقال **ﷺ**: (٣) إن **اللَّهُ** لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم (٣) وقال **ﷺ**: (٤) إن **اللَّهُ** لا يقبل على كلام الحكيم ولكن يقبل على همه وهواه (٤) وقال تعالى: ﴿لَا تَطْعَمَنَ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (٥).

(١) (المنافقون: ٨).

(٢) (الشعراء: ٨٩).

(٣) رواه أحمد في الجزء الثاني ص ٢٨٥، ٥٣٩، ومسلم في كتاب البر الحديث ٣٣، وابن ماجه في كتاب الزهد الباب التاسع.

(٤) رواه الدارمي في كتاب المقدمة الباب ٢٧.

(٥) (الكهف: ٢٨).

فلا تظن يا أخی أن أهل الجنة الذين أثنى اللهُ عليهم كانوا معصومين من المعاصي، بل قد يرتكبونها كما نرتكبها، ولكن القلوب كانت مشرقة بأنوار الخشية من اللهُ تعالى والرغبة فيما عنده، فكان اللهُ يتقبل أعمال قلوبهم التي هي أحسن ما عملوا من الطاعات، ويتجاوز عن سيئاتهم التي يعملونها بأبدانهم، ولا تظن - يا أخی - أن أهل النار الذين شنع اللهُ عليهم، وذمهم في كتابه العزيز لم يكونوا مطيعين لله، ولكن اللهُ تعالى نظر إلى أعمال أبدانهم التي تطيعه فلم يقبلها، وردّها عليهم لأنه علم ما في سرائرهم من شرك خفي أو من حظ متبع أو من هوى مطاع فرد عليهم أعمالهم لأنهم كانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ (١).

فلا يبئسك قبيح عملك من أن تكون من أهل الجنة إذا تقبل اللهُ أحسن ما عملت، ولا تأمن جانب اللهُ بحسن عملك. هكذا كان السلف الصالح الذين أثنى اللهُ عليهم

(١) (الفرقان: ٢٣).

ومدحهم، حتى تغيرت أحوال القلوب، وشهد الناس أن الظهور بالتقوى، والتجمل بأنواع العبادات موجب لارتفاع الشأن في الدنيا، ونيل الرياسة والسيادة. فامتزج حب الدنيا في القلب بالإخلاص، فالتفت اللهُ تعالى بوجهه الكريم عن المجتمع الإسلامي، فكانت ترى أبدانا مجملة بالطاعات، ورجالاً مجملين بحل أهل التقوى فيخشع قلبك لرؤيتهم، وينشرح صدرك بالنظر إليهم، وتقول: هؤلاء المتقون، ولكن اللهُ تعالى ينظر إلى قلوبهم فيرى همة لغيره، وهوى في غيره، وأخذت الحظوظ والأهواء تمتزج بأنوار الإسلام في القلوب حتى كاد هذا النور يطفأ من القلوب، وأصبح هم الناس دنياهم، فوكلهم اللهُ إلى أنفسهم بتركهم العمل بكتابه العزيز والافتداء بنبيه الكريم ﷺ، والتشبهه بأئمة السلف الصالح من الهداة المرشدين، فاكفهرت الأجواء، ونضبت العيون، وأبدلت العزة بالذل، والقوة بالضعف، والاجتماع بالتفرقة، وتركوا دينهم وبه المجد والسلطان في الدنيا والسعادة الأبدية في الدار الآخرة، ووقعوا في الذنوب التي توجب النقم، والمعاصي

التي تغير النعم، وفي البدع التي تهتك الحرم، وفي المنكرات التي تحبس غيث السماء، وفي الضلالات التي تدل الأعداء، سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (١).

فإذا أراد المسلمون أن يجددوا لهم المجد، ويمكن لهم في الأرض، ويمنحهم العزة به، ويجعلهم أئمة للمتقين، وسادة للعالمين، ما عليهم إلا أن يعودوا إلى ما كان عليه أسلافهم الصالحون الذين أدلهم الله عليهم العالم أجمع، وليس ذلك بالأمر الصعب على المسلم، وكيف يصعب على المسلم عملاً يكون به عزيزاً بعد الذل؟ متبعاً بعد أن صار تابعاً، عظيماً بعد أن صار حقيراً، بل كيف يتعسر عليه عمل يكون الله به معه، ويكون به مع الله، يجمله الله بحلل الخلافة عنه، يسخر الله له به ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، لست في مقام إقامة الحجة على أننا تركنا معالم ديننا وأبدلنا النور بالظلمة، فأبدل الله القوم بالعز ذلاً، وبالغنى فقراً، وبقوة

(١) (الرعد: ١١).

السلطان والتمكين في الأرض ضعفاً وهواناً، لأن ذلك أمر جلي، ولكني أعجب كل العجب من قوم جهلوا ما كان عليه أسلافنا باقتدائهم بهدى الأئمة الهداة المرشدين، وعملهم بسنة رسول الله ﷺ من السلطان القائم والعز الدائم، والمجد الحقيقي، حتى أصبحوا إذا رأوا متمسكاً بدينه، عاملاً بسنة رسول الله ﷺ، يظنون أن ذلك تقهقر، عجباً عجيباً! بلغت الغواية من الإنسان مبلغاً جعلته يجهل ويجهل أنه يجهل، يقولون: لم نتقدم أوربا إلا بترك الدين، فاتركوا الدين تتقدموا، ونعم تركت أوربا الدين فتقدمت، وتركنا ديننا فتأخرنا.

بم يأمر دين أوربا؟! ننظر إلى أصوله وإلى إمامه الأول، أمر بخراب الدنيا، قال للغنى: اترك مالك واتبعني، ترك الزواج ليقبض به، قال: أعط ما لقيصر لقيصر، وأعط الله ما لله، ففصل الدين عن الدنيا، أهمل الحدود، فقال للزانية التي شهد عليها الشهود أنها زنت: انصرفي، يدينك من يدين الناس، أهمل الأجسام إهمالاً يؤدي إلى خراب المجتمع الإنساني، فكأنه جاء ليتترك

الناس الزراعة والتجارة والصناعة ليكونوا ملائكة روحانيين، وهذا محور لحكمة إيجاد الوجود، والبحث فيما خفى في الآثار من آيات موجب الوجود مما هو برهان على عجائب قدرته، وغرائب حكمته، لم تأنس نفسه بأن يأوى إلى مسكن، نفر من أمه وقال: لست أمى، ومن إخوته وقال: لستم إخوتي، هذه أصول دين أوربا، والمتمسكون به هم أفراد ليسوا من بنى الإنسان، مسكنهم الغابات، فلو أن أوربا تمسكت بدينها لكانوا همجاً رعاة، ولكنهم تركوه بعد أن علموا أنه حجر عثرة فى طريق التقدم، وقبر آيات **اللَّهِ** المنبلجة فى الآثار التى تنتجها الأعمال والصناعة، وتمسكوا بوصايا القرآن وأعمال رسول **اللَّهِ ﷺ**، واقتداء بالخلفاء الراشدين فى عملهم فى الدنيا للدين، وتركوا عقيدة القرآن وعبادته وأخلاقه، فهم كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (١). فبعثهم **اللَّهُ** على من تركوا دينهم الحق وبدلوا نعمة **اللَّهِ** كفرًا، فجاسوا خلال الديار

(١) (الروم: ٧).

وكان وعداً مفعولاً، ترك القوم دينهم، ولكن عملوا بوصايا ديننا، وتركنا نحن ديننا فصرنا أذلاء.

هل دينهم أمر ببعث البعوث وبعث العلماء فى أنحاء الأرض للدعوة؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (١) لا **واللَّهِ**. هل من دينهم إعداد العدد والعدد للجهاد؟ لا **واللَّهِ**. هل من دينهم تقوية الفكر حتى يجول فيفتق رتق المادة ويعلم ما فيها من الخواص التى أعدها **اللَّهُ** لنفع بنى الإنسان؟. كما قال تعالى: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢) لا **واللَّهِ**. هل فى دينهم العناية بنظافة الأبدان والثياب والمسكن؟ لا **واللَّهِ**، كما قال **ﷺ**: (النظافة من الإيمان) (٣) وير الوالدين وصلة

(١) (آل عمران: ١٠٤).

(٢) (يونس: ١٠١).

(٣) أورده الهيئى فى مجمع الزوائد ٢٣٦/١، والعراقى فى المغنى

عن حمل الأسفار ٤٩/١، ١٣٤، وأبو نعيم فى تاريخ أصبهان

١/١٨٣، والدر المنثور ٦٠.

ونحن أهل توحيد **اللَّهِ** والمؤمنون بكتب **اللَّهِ** ورسله-
لواجهنا **اللَّهِ** بوجهه الجميل، ورد لنا مجدنا وجعل العالم
أجمع أذلاء لنا كما جعل لأسلافنا.

المراد بالعلوم العصرية

وفضل المسلمين الأوئل في هذا المجال:

هذه الكلمة لا أفهم لها مدلولاً، لأنى لا أعلم علماً
يدرس الآن لم يكن له أصل قديم، لأن الإنسان منذ نشأته
وهو يكدح في سبيل المنافسة في الحياة، وكلما توفر لديه
الضرورى نزعته نفسه وراء البحث عن الكمالى، فإن
كان المقصود من العلوم العصرية علوم الحكمة العملية
من الصناعات والمخترعات التى كانت محصورة فى
فنون البخار والكهرباء واستخدام الهواء فليست هذه العلوم
عصرية، فإن البخار استخدمه الإنسان من أربعة آلاف
سنة، فإن الكهنة كانوا يملأون المرجل من الماء ويجعلون
له فوهة بصمام، ويوقدون تحته النار حتى إذا امتلأ بخاراً
وضعه فى جوف الصنم ورفعوا الصمام فيخرج البخار
من الفوهة بصوت مزعج، فيقول الكهنة للناس: إن الإله

الأرحام سر قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ
شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (١) وقوله تعالى:
﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ (٢) لا والله. هل فى دينهم
جمع الأموال وعمل المجتمعات بالتعاون كما هى فريضة
دينية فرضها **اللَّهِ** تعالى (الزكاة)؟ كما قال تعالى:
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (٣)، لا والله. قال
تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ (٤)، لا
والله. هل فى دينهم أحكام شرعية مدونة تحفظ بها
المدن وتحصن بها المجتمعات ويضرب بها على يد
الظالم وينصر بها المظلوم؟ لا والله، ولكنهم أخذوها من
ديننا وعملوا بها، إذن فهم تركوا دينهم وعملوا بوصايا
ديننا فسلطهم **اللَّهِ** على من تركوا دينهم الحق، ونحن
أولى بديننا منهم وأحق به منهم، فلو أننا علمنا بديننا-

(١) (النساء: ٣٦).

(٢) (الإسراء: ٢٦).

(٣) (البقرة: ٤٣).

(٤) (آل عمران: ١٣٤).

غضبان عليكم، وينالون منهم أغراضهم، وكذلك الكهرباء فإن الإنسان من قديم يعلم قوة الجذب المغناطيسي وتأثير ذلك على جوهر الكهرمان، فكأن تلك الفنون إنما هي نتائج أفكار قرون طويلة.

وإن كان المراد بالعلوم العصرية علم الحساب والهندسة والجبر واللوغارتم والمساحة وتخطيط الأرض (الجغرافيا)، فإن تلك الفنون لم تصر علوماً ذات أصول وفروع إلا بسلف المسلمين الصالح، فإن واضع علم اللوغارتم هو الخوارزمي، وواضع علم الجبر هو جابر ابن عبد الله الشهير، وأول من بحث في معرفة خطوط الطول والعرض وحقق تلك المسألة المأمون، وأول كرة صنعت صنعها عالم كبير من علماء المسلمين، وأول من جعل للطب كتباً يرجع إليها الرئيس ابن سينا، فإن قانونه كان يدرس بألمانيا لأواخر القرن الثامن عشر، وهذا وإن الدين الإسلامي فرض تعليم العلوم على كل مسلم، لأن العبادة التي فرضها الله علينا لا يمكن أن تؤدي إلا بعلم تلك العلوم كلها، فإن تلك العلوم في حكم الفريضة لأن

الفريضة لا تتم إلا بها، قال الله تعالى: ﴿لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ (١).

فكأن تلك العلوم التي نسميها عصرية وتزعج منها نفوس من لم يحط علماً بأسرار القرآن وينكر تعليمها ليست علوم اليوم، ولكنها تكاد تكون علوماً دينية، وقد أثبت طرفاً من ذلك في كتاب (معارض المقرئين) فارجع له- إن شئت- ولا يكون المسلمون متجملين بمعاني الإسلام حقيقة عاملين به إلا إذا أحاطوا علماً بكل الفنون والصناعات، تتكشف لهم عجائب قدرة الله وغرائب حكمته في مكنوناته، وتنبج لهم أنوار وظيفة كل مرتبة من مراتب الوجود، وما أودعه الله فيها، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ (٢).

(١) (يونس: ٥).

(٢) (الجاثية: ١٣).

الفائدة الدينية

من تعليم العلوم العصرية:

المؤمن يزيد إيمانه وينقص كما هو معلوم، وإنما مزيد الإيمان يكون بقدر ما ينبج للقلب من نور البرهان، وسطوع نور الدليل، والحكمة العملية التي منها الصناعات لا يمكن أن ينتفع الإنسان بها فعماً عاماً إلا بعد أن يعلم خواص كل مادة من مواد عناصر الكون، ويعلم خواصها منفردة ومزدوجة ومتحدة، وما ينتج منها متحدة ومنفردة، فإذا ظهر للمسلم خواص الأشياء التي تحيط به وقدّر منافعتها له واحتياجه إليها، علم حق العلم أن الذي خلق تلك الأشياء حكيم قادر لأنه سبحانه وتعالى خلقها مؤهلة لنفعه، وخلقها محتاجاً إليها، معتقداً أن وجودها ليس عبثاً، ولديها تنبج له أنوار الآيات بعد علم الخصوصيات، فيشهد في كل شئ آية دالة على قدرة القادر البديع وحكمة المبدع العليم، وتدبير المبدئ المعيد ويفقه سر قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ (١). ويعلم قدر النعمة عليه بالعقل الذي به استخدام

(١) (الجاثية: ١٣).

كل شئ سخره له مولاه، فإذا قرأ القرآن بعد هذا العلم كان كأنه يسمعه من ربه، وإن أكثر آيات القرآن حائثة على الفكر والنظر والعبرة والتبصرة، قال أبو هريرة رضي الله عنه: (كنا نتعلم الإيمان قبل القرآن، وإذا قرأنا القرآن ازددنا إيماناً) وأصبحنا نحن الآن نتعلم القرآن قبل الإيمان. فالحكمة العملية التي منها تدبير النفوس منفردة ومجموعة وعلم سياسة المجتمعات وفنون الصناعات به يزيد الإيمان.

أما نقص الإيمان فبقدر خفاء الدليل، وإذا كان المطلوب غيباً والدليل خفياً كيف تنال المقصود؟ فيكون الإيمان ناقصاً، وبقدر نقصه تكون الجرأة على عمل المنكرات وارتكاب المخالفات، والإقدام على المعاصي وعدم الخشية من الله تعالى في السر والعلن، والخوف من الخلق، وقد يبلغ نقص الإيمان أكثر العلماء والمدعين الإرشاد، أحبوا أنفسهم، وبذلوا ما في وسعهم بجلب الخير لها ودفع الضر عنها، فتهاونوا في تأدية الواجب عليهم من إنذار الناس عاقبة المخالفة، فصار الدعاة إلى الله لا عمل لهم إلا تبشير من أكرمهم والدعاء له وإدخال السرور عليه كائناً ما كان، وصار العلماء يجتهدون في

أن يبرأوا من نسبة العلم النافع للدار الآخرة، المذكر بأيام
 اللَّهُ المزمى للنفوس لأنفسهم خشية أن يقال لهم: إنكم
 لستم عصريين. واهتموا بما به يكون العالم قاضياً أو
 محرراً أو مدرساً، ومتى نال الشهادة اعتمد عليها،
 وصارت الحجة القوية، يوجب بها على الناس طاعته
 وتعظيمه، وكأن الشهادة هي العلم، والعلم هو الشهادة،
 فصار المسلمون بذلك كلما فعل المرء منهم سيئة لا يجد
 من غيره تقبيحاً لها، ولا تخويفاً له من عاقبتها، ألفت
 نفوس المسلمين رذائل الأعمال.

ولو أن اللَّهُ تعالى أيقظ الدعاة من نومة الجهالة،
 والعلماء من رقدة الغفلة، وأحبوا أنفسهم الحب الذى تتال
 به السعادة الأبدية لقاموا قومة رجل واحد يبنهون
 المسلمين إلى ما تراكم على أبدانهم من الأدران، التى
 ربما أدت إلى التهاب الجلد وسرت إلى العظام.

وإني - يا أخى - أبشرك بأن كل ما تراه بعينك حاصل
 من المسلمين من المعاصي، كغبار على جسد مجرد من
 الثياب، يزول بأول رذاذ ينزل من السماء.

ولو شئت إقامة البرهان على ذلك فقم إلى مواطن
 الفجور، وذكر الناس بنعم اللَّهِ عليهم وفضله الواصل

إليهم، ثم تخلص من هذا الموضوع بسحر البيان إلى
 تذكيرهم بيوم الحساب وشدته وهوله فإنك - يا أخى -
 والله لا ترى إلا قلوباً خاشعة، وأبداناً خائفة، وعيوناً
 دامعة، ولكنك - يا أخى - إذا وقفت أمام إخوانك المؤمنين
 وهم فى معصيتهم، وتسلبت عدوهم عليهم فنفرتهم
 بقوارض كلامك، وأحرقتهم بشواظ حماقتك، فإنك - يا
 أخى - توقعهم فى أكبر مما هم فيه، وتلقيهم فى مهاوى
 غضبه، وإنما الحكيم من عرف كيف ينقذ الغريق
 من اليم بحيلة لا تلحقه به، وحكمة لا تضره، قال اللَّهُ
 تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
 الْحَسَنَةِ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
 السَّيِّئَةِ﴾ (٢). أ.هـ.

نسأل اللَّهُ تعالى أن يجمع أمرنا، ويهدى ضالنا،
 ويوفقنا لما يحب ويرضى.

لجنة البحوث والدراسات

بالطريقة العزمية

(١) (النحل: ١٢٥).

(٢) (المؤمنون: ٩٦).

تمهيد

لماذا يستمدفون ثورة الفاتح!!؟

بعد انتصار ثورة الفاتح من سبتمبر الإسلامية، وما حققته من إنجازات متلاحقة لصالح الإسلام والمسلمين في أنحاء العالم، أبهرت العلماء المسلمين، وقادة العمل الإسلامي والدعاة، وشدت انتباههم، أصبحت هذه الثورة المباركة وقائدها الأخ قائد القيادة الشعبية الإسلامية العالمية ومؤسس جمعية الدعوة الإسلامية العالمية مرجعية إسلامية.

فبعد انتصار ثورة الفاتح من سبتمبر وحتى تمكنها من إجلاء القواعد العسكرية البريطانية والأمريكية وبقايا الاستعمار الإيطالي الذي كان مهيمنا على كافة المناشط الاقتصادية، مستحوذا على أجود الأراضي الزراعية، وتطهير الوطن من بؤر الرذيلة التي كانت منتشرة في طول البلاد وعرضها، من غلب الليل وصالات القمار ومواخير الخمر في وقت قياسي، وجهد خارق منذ انبلاج

الثورة يوم الاثنين ١٩٦٩/٩/١م، وحتى إجلاء آخر مستوطن إيطالي يوم ١٩٧٠/١٠/٧م، دعا قائدها المسلم الصوفي الشريف معمر القذافي إلى عقد مؤتمر إسلامي تحت رعايته يهدف إلى توحيد الجهود، وتضافر القوى في عمل مشترك، يعيد للإسلام مجده وعزته، وحدد الموضوعات التي يناقشها المؤتمر وهي:

أولاً: بحث أنجح الوسائل لنشر الدعوة الإسلامية ومكافحة الغزو العقائدي للبلاد الإسلامية والمناطق المؤهلة للإسلام.

ثانياً: البحث فيما يجب توفره في الداعية من شروط وكيفية إعداده ودعمه.

ثالثاً: وضع خطة تأخذ في الاعتبار أحدث الوسائل والمناهج لنشر الإسلام في العالم قاطبة، وتحديد المناطق الأكثر احتياجاً واستعداداً لانتشاره.

وانعقد المؤتمر الأول للدعوة الإسلامية في الفترة من ١٩٧٠/١٢/١٦م إلى ١٩٧٠/١٢/١٦م بمدينة طرابلس، بعد أن استجاب عدد كبير من علماء المسلمين من مختلف

البلاد الإسلامية ومن جميع القارات للنداء.

وبحمد **الله** وتوفيقه أنهى المؤتمر أعماله بإصدار مجموعة من المقررات العامة والخاصة، رفعت إلى القائد فأصدر باسم الشعب القانون رقم ٥٨ لسنة ١٩٧١م بإنشاء هيئة خاصة ذات نفع عام لها الشخصية الاعتبارية المستقلة باسم (جمعية الدعوة الإسلامية العالمية) آلت إليها جميع أموال وممتلكات الهيئة العامة للدعوة الإسلامية.

وقد أخذ نشاط جمعية الدعوة الإسلامية منذ البداية اتجاهات عدة تلتقى جميعها عند الغاية الكبرى، وهى خدمة المسلمين فى كل مكان، والدعوة إلى دين **الله**، وفق مقررات وتوصيات المؤتمر التأسيسى، حيث عملت جاهدة على استكمال بناء أجهزتها وتطوير خططها. وأساليب عملها بما يتناسب وتحقيق أهدافها.. وأهمها:

(١) الدعوة إلى الإسلام فى جميع أصقاع العالم. وإعداد الدعاة ودعمهم بما يمكنهم من أداء مهامهم.

(٢) تقوية أواصر الأخوة والألفة وتوثيق العرى بين المسلمين، وعقد اتفاقيات التعاون المشترك فى مجال

الدعوة الإسلامية وتقديم المساعدات.

(٣) نشر وتوزيع القرآن الكريم والكتاب الإسلامى.

منجزات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

(١) المرأة المسلمة:

واهتماماً خاصاً بالمرأة وتقديراً لدورها الفعال فى نشر الإسلام، وترىبة النشء انبثقت لجنة المرأة المسلمة عن اللجنة الثقافية بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية فى شهر نوفمبر ١٩٧٢م بهدف:

- نشر الوعى الدينى بين المسلمات العربيات محلياً.
- تعليم مبادئ وأصول الدين الإسلامى للمسلمات فى الدول الأجنبية وغير الناطقة باللغة العربية.
- العمل على تصحيح مفاهيم غير المسلمات عن الإسلام.
- الاتصال بالمنظمات الإسلامية النسائية فى العالم وتنسيق الجهود بينها لرفع مستوى المرأة المسلمة.

حيث نظمت حتى بداية عام ٢٠٠٤م حوالي ٣٠ دورة تدريبية في أكثر من بلد، وصل عدد المتدربات فيها إلى ٩٠٠ امرأة تلقت التدريب على الحياكة، وتعليمهن مبادئ الإسلام واللغة العربية، كما نظمت الجمعية عددا من الملتقيات والتظاهرات الثقافية النسائية استهدفت أكثر من ٥٠٠ امرأة.

(٢) الدعاة والمساجد والمدارس والمراكز:

بعد ظهور البترول بمنطقة الخليج استغل الخطر الفكرى التكفيرى للوهابية فى جميع أنحاء العالم، فأوقع الفتن والخلافات بين المسلمين فى أوروبا وأمريكا وأفريقيا وآسيا، مما أغرى المنصرين أن يبتثوا سمومهم بين المسلمين الذيم كفرتهم وفرقتهم الوهابية وأصقت الإرهاب بهم، لذلك اهتمت الجمعية بإرسال الدعاة والمدرسين إلى كل قارات العالم، لنشر الإسلام الوسطى الصحيح، وإيقاف المد الوهابى والتنصيرى فى سائر ربوع العالم، فتم إرسال ٥٨٧ داعٍ من حملة الشهادات الجامعية فى العلوم الإسلامية إلى ٧٣ بلد: فى أوروبا والأمريكيتين

وكندا ٨٠ داعية، وفى آسيا وأستراليا ٢٣٢ داعية، وفى أفريقيا ٢٧٥ داعية.. وتم تنظيم ٣٢ دورة استهدفت ٣٨٠٠ إمام وخطيب، وتم بناء ٢١ مسجداً جديداً، وترميم ٣٠ مسجداً، واستكمال بناء ٤٣ مسجداً بمختلف قارات العالم.. وتم بناء ٣٠ مدرسة، وترميم ٥٠ مدرسة، واستكمال بناء ٤٣ مدرسة وخلوة ومعهداً وكلية.

كما تم تشييد ٨ مركز إسلامية، وترميم عشرة، واستكمال ١٤ مركزاً بهولندا وألمانيا وبلجيكا وفرنسا والدنمارك وروما ولندن والنمسا وكاليفورنيا وكندا وسيريلانكا وكوريا الجنوبية.. كل ذلك بخلاف ما تقدمه كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس وفروعها ببيروت ودمشق ونشاد وبنين والسنغال، وكلية الدراسات العليا بلندن من خدمات جلييلة للمسلمين، والتي خرجت الآلاف من حملة الشهادات العليا فى الدراسات الإسلامية واللغة العربية، وتم إنشاء وترميم دور أيتام فى عدد من الدول الأفريقية وماليزيا وتركيا واليمن وبريطانيا.. كما تم حفر آبار بالقرى النائية بالعديد من دول أفريقيا.

(٣) القرآن الكريم والمطبوعات:

قامت الجمعية بطباعة وترجمة معانى القرآن الكريم بلغات متعددة منها: العربية والأندونيسية ولغة الهوسا، حيث تم طباعة حوالى ٣٢١٢٠٠٠ نسخة بعدة أحجام. كما تم طباعة أكثر من ٦٤ مطبوع وبكمية ٤٣٧٠٠٠٠ نسخة وزعت مجاناً على مختلف الهيئات والجمعيات والمدارس والمراكز الإسلامية.. علاوة على ترجمة وطباعة الآلاف من كتيبات: كيف تكون مسلماً؟.. وتعليم الصلاة بمختلف اللغات.. مع المشاركة فى معارض الكتب، حيث شاركت الجمعية فى ٥٦ معرضاً دولياً للكتاب.

(٤) إصدار صحيفة ومجلة:

قامت الجمعية بإصدار صحيفة الدعوة الإسلامية الأسبوعية ومجلة رسالة الجهاد بثلاث لغات هى: العربية والإنجليزية والفرنسية، للاهتمام بشؤون المسلمين فى العالم، ونشر أخبارهم والدفاع عن حقوقهم.

(٥) تعلم اللغة العربية:

قامت الجمعية بإنشاء ١٠ مراكز لتعليم اللغة العربية منها: ٦ بأفريقيا، ٢ ببلجيكا، ١ بكندا، ١ بكوريا، مع تعليم اللغة العربية لبعثات الأمم المتحدة، وتم تنظيم أكثر من ٦٠ دورة استهدفت أكثر من ألفى دارس فى مختلف الدول، علاوة على الدورات المنتظمة التى تقوم بها المراكز الإسلامية التى تدعمها الجمعية.

(٦) قوافل دعوية وطبية:

قامت الجمعية بإيفاد قوافل دعوية وطبية لعلاج الأمراض وتقديم الدواء ومواجهة الكوارث الطبيعية وكوارث الحروب إلى: سيريلانكا ورواندا وبروندى ومدغشقر وغانا وتوجو والمالديف وبنين وبوركينا فاسو ومالى وأوغندا وزيمبابوى وبتسوانا وأثيوبيا والسودان وموريتانيا وألبانيا والنيجر والبوسنة والهرسك والشيشان وأذربيجان وسورينام ونيجيريا وتشاد وأفغانستان.. حيث استفاد الآلاف من مواطنى هذه البلاد.

٧) ندوات ومؤتمرات ومحيمات الشباب:

أقامت الجمعية عشرات الندوات والمؤتمرات لمناقشة القضايا العديدة للأمم في شتى الجوانب الدينية والسياسية والإعلامية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما اهتمت بندوات الحوار الإسلامي المسيحي، وقامت بتنظيم ١٧ مخيماً للشباب في قبرص وطرابلس وموزمبيق وبيلاروسيا وتايلاند وبوركينا فاسو ومالاوي ورواندا وجنوب أفريقيا وموريشيوس وسورينام وغامبيا استهدفت ما يزيد عن ٥٠٠٠ شاب وشابة.

٨) نشاط شهر رمضان:

مع بداية شهر رمضان ترسل الجمعية عدداً من قراء القرآن الكريم والوعاظ إلى مختلف دول العالم، حيث أوفدت ٢٢٠ قارئاً وواعظاً إلى ٨٠ دولة مختلفة، مع تنفيذ برنامج إفطار الصائم والذي اتسم بالشمولية والكثافة، حيث شمل دولاً في آسيا وأفريقيا وأوروبا وأستراليا، استهدفت أكثر من ٣ مليون صائم في ٥٥ دولة.

٩) مسابقات حفظ القرآن:

عقدت الجمعية عدة مسابقات لحفظ القرآن الكريم وتجويده في تركيا ومالطا وبنين وألمانيا وبنما.

١٠) المهتدون الجدد:

نظراً لوسطية الدعوة للإسلام الذي تتسم به الجمعية، فيعد الذين أشهروا إسلامهم بمئات الآلاف في مختلف الدول بمراكز جمعية الدعوة، علاوة على الأجانب العاملين بالجماهيرية.. وذلك بخلاف من أسلم على يد القائد المسلم معمر القذافي - ٥٢٠٧ - خلال رحلاته بغرب أفريقيا، وعشرات الآلاف خلال رحلاته إلى تشاد، بينهم عدد من المسؤولين والسلطين، وكان ذلك حدثاً غير مسبوق.

١١) رعاية التصوف:

لما كان الصوفية هم أهل النجدة والمروءة، ورجال الجهاد الأصغر والأكبر احتضنت الجماهيرية العظمى خلال الفترة من ١٧ إلى ١٩ من شهر الفاتح (سبتمبر)

١٩٩٥م، أول ملتقى عالمي من نوعه لرجال و علماء الصوفية في العالم، وحضره ممثلون عن ٧٥ دولة، يمثلون أكثر من مائة من الطرق الصوفية، ناقشوا خلاله ثلاثة محاور هي:

(١) تقييم التصوف الإسلامي.

(٢) الرباط، والترابط، والمرابطة لأهل التصوف من أجل الدفاع عن العالم الإسلامي، ودرء الأخطار عنه.

(٣) تقييم الأساليب الصوفية لخدمة دين الله.

واختير شيخ الطريقة العزمية السيد محمد علاء الدين ماضي أبو العزائم ممثلاً للتصوف العالمي في القيادة الشعبية الإسلامية العالمية.

رحلات القائد الجهادية

هناك الكثير من الجوانب الهامة في شخصية القائد المسلم الثائر معمر القذافي يجهلها الكثير من الناس منها:

- (١) أنه شريف النسب من جهة أبيه الحسيني.
- (٢) أنه صوفي النزعة والتربية، بحكم نشأته في أسرة

صوفية متدينة.

(٣) يبدأ صيامه من أول رجب، إلى جانب حفظه على صيام الاثنين والخميس أسبوعياً، مع حفظه القرآن كاملاً، وإمامته للمصلين، وخطبته للجمعة.. ولا يلتقى برئيس دولة أو مسؤول إلا ويعرض عليه الإسلام.. وهي صفات ندر أن نراها في حكام المسلمين اليوم.

وفي نقلة نوعية تاريخية أرخت لتيار وحدوى إسلامي قام القائد المؤسس بزيارتين تاريخيتين في بداية عامين قمريين لكل من النيجر، ونيجيريا، وتشاد، لاستظهار القوة المعنوية والقدرات المادية للمسلمين الأفارقة.

ففي غرة محرم اليوم الثامن من شهر يونية لعام ١٩٩٧م، انطلقت الرحلة الأولى إلى مدينة نيامي عاصمة النيجر، أم فيها القائد ملايين المسلمين في صلاة العصر، وفي اليوم التالي أم المسلمين في صلاة الجمعة بمدينة كانو النيجيرية، تقاطرت بعدها حشود الملايين من مسلمي أفريقيا وفعاليتهم الاجتماعية والدينية يبائعون القائد، ويؤكدون سوابق بيعاتهم له بالمساندة والوفاء لدعم جهوده

الرامية لإعلاء كلمة الإسلام وشأن المسلمين في كل بقاع الأرض.

واستحدثت بعد هذه الزيارة برنامج تعليم اللغة العربية سمي (ما بعد كانو) تمكن من تعريب الكثير من أهل تشاد والنيجر وبوركينا فاسو ومالي، وبلغ عدد المدرسين في هذا المشروع أكثر من ٤٠٠٠ مدرس.

وفي يوم الخميس الرابع من شهر محرم الموافق ١٩٩٨/٥/١م، وصل القائد المسلم معمر القذافي إلى مدينة إنجامينا عاصمة تشاد حيث كان في استقباله عدد من قادة القارة الأفريقية وآلاف من أعضاء وقادة الجمعيات والمنظمات وشيوخ وأتباع الطرق الصوفية ليأمرهم في صلاة أول جمعة من العام القمري بالساحة الكبرى لمسجد العاصمة إنجامينا.

وركز القائد المسلم في خطبه وأحاديثه التي ألقاها أثناء تلك الرحلات الدعوية على القضايا التالية:

* كشف المخططات التي تستهدف النيل من الإسلام كعقيدة.

* فضح الافتراءات التي تستهدف الترويج لثقافة ولغة-الآخر- وطرحها كبديل للثقافة المحلية بهدف إحداث شرخ نفسي في الهوية الإسلامية للمنطقة.

* ضرورة إعادة الثقة بالنفس من خلال توضيح الإمكانيات المادية والمعنوية التي تزخر بها القارة، والتنويه بأهميتها في صنع المستقبل الزاهر لأبنائها.

* الدعوة للتمسك بالأصالة والعودة للجذور الثابتة، ونبذ كل ما هو غريب عن الشخصية الأفريقية.

وقد كان من بين النتائج الأولى للرحلة الدعوية الثانية للنائر المسلم معمر القذافي أن أعلن عشرات الآلاف من الذين هداهم **الله** للإسلام، إسلامهم بين يديه.

واستمرراً للدور الفعال قام الأخ القائد بالرحلة التاريخية الثالثة بالمرور براً على خمس دول أفريقية- في طريقه لحضور مؤتمر القمة بلومى التوجو- وهي:

النيجر، بوركينا فاسو، غانا، التوجو، بنين، قطع من خلالها أكثر من ٤٠٠٠ كم، والتقى بالجماهير، وتفقد أحوال المسلمين وإمكاناتهم، وفي إطار تفعيل الرحلة

الدعوية قامت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بتنفيذ عدد من المشاريع وتقديم المساعدة للمسلمين في الخمس دول التي استهدفتها الرحلة.

استهدفت الثورة

لعل المسلمين في العالم لم يشهدوا في التاريخ الحديث ثورة عالمية ساندت قضايهم، ووقفت إلى جانبهم وضحت من أجلهم إلا ثورة الفاتح من سبتمبر، لا نقول هذا مجاملة، ولكن الحقيقة والأفعال أبلغ من الأقوال كما ذكرنا في الأسطر السابقة.

لم تكن ثورة، هذه أهدافها، وتلك منجزاتها في خدمة الإسلام والمسلمين - كما هو حال ثورة الفاتح - لتترك وهي تخوض معاركها على كل الصعد، دون أن يناصبها النهابون والمستعمرون وأعداء الأمة والإنسانية العدا.

يقول مسؤول أميركي كبير: (إن تطلعات ليبيا ومواقفها تقف حائلاً دون تطوير علاقات الولايات المتحدة بها) [مجلة الشاهد سبتمبر 1995م].

وقد كشف الإمام أبو العزائم في كتابه (الجفر) عن الشدة التي ستصيب ليبيا، وأنها سوف تنتصر في النهاية فيقول ﷺ:

فـى طرابلس ظلام شدة

غير أن السهم في الكفار صائب

تريد الثورة في ليبيا أن تبنى وطنها وأن تكون خيراتها لأبناء هذا الوطن، وتريد الثورة في ليبيا أن تنهض بأمتها، كما تريد أن تنهض بالإنسانية التي يحق لها العيش بلا تسلط الصهيونية والصليبية واستغلالهما.. هذه هي تطلعات ليبيا ومواقفها، التي جعلت منها العدو رقم واحد للإمبريالية الأمريكية والغرب الاستعماري.

ومنذ فجرها الأول لم يشعر المستعمرون بالرضا تجاه ثورة الفاتح الإسلامية المباركة، والتي عملت على إخراج بقيا المستعمرين المتمركزين في قواعد عسكرية في ليبيا، كما عملت على تأمين ثرواتها الوطنية، ثم كانت انطلاقاتها الوثابة، وكلما تقدمت خطوة ازداد العدا السافر لها، والتي تمثلت محطاته البارزة في محاولات إطلاق قوى الثورة المضادة، ثم محاولات استنزاف الجماهيرية في

معارك هامشية، وعندما لم تفلح هذه الأساليب تحركت أمريكا بكل قواها لشن عدوان وحشى على الجماهيرية فى ١٥/٤/١٩٨٦م، استهدف اغتيال قائد ثورتها والسعى إلى إرضاخها، وكانت كرامة كبرى أن يضرب منزل القائد وهو فيه مع أبنائه ولم يقتل منهم أحد.

وعندما لم تغير هذه الاعتداءات الوحشية من الموقف الليبى، جاء افتعال (قضية لوكيربى) وفرض الحصار الظالم على الجماهيرية، بغرض إرضاخها وثنيتها عن موافقها، وتقويض سيادتها وإركاها.

ولكن الجماهيرية وعلى مدى سنوات الحصار ١٩٩٢-٢٠٠٣م أثبتت أن بنیان الثورة أصلب من أن تتال منه العقوبات الظالمة، وعمليات الخنق والتضييق.. لقد تسبب الحصار بويلات كثيرة أصاب الكثير من مظاهر الحياة اليومية لكنه لم يصب إسلامية الثورة ولا إنسانيتها، فأكدت الجماهيرية بلسان قائدها أن ليبيا (لا تجهز نفسها للاعتراف بإسرائيل ولا للتفريط ولا للاستسلام).. وأضاف: إن ليبيا الحرة تعد نفسها للمقاومة التاريخية

الطويلة رافعة رايات المقاومة والقومية العربية والإسلام والجهاد.

لذلك شرع الغرب فى الإعداد لضغوط جديدة من خلال خطة حظر النفط، وجاء الرد الليبى مرة أخرى (إن فرض الحظر على النفط الليبى لن يؤدى إلى تفريط طرابلس فى سيادتها، وأن الليبيين مستعدون للعيش دون عوائد النفط).

وأخيراً.. أرادوا احتلال ليبيا بطريقة احتلال العراق بزعم أن بها أسلحة دمار شامل.. ولكن القيادة الحكيمة فوتت عليهم هذه الفرصة. وفى الخطاب السياسى الواضح والمحدد ربطت الثورة بين ما تتعرض له ليبيا وما تتعرض له الأمة الإسلامية، وأن ما تعانیه ليبيا، ما كان يحصل لو أن الأمة على غير حالها اليوم.. وهكذا تؤكد الثورة صوابية توجهها، كما تؤكد صلابة موافقها.

رجال ليبيا الأئمة

أشار الإمام أبو العزائم فى كتابه (الجفر) إلى أن رجال ليبيا الأئمة سوف يكرمون بجمع المسلمين تمهيداً

أَبْعَدُ مِنْ تُمْبُكْتُو

محاضرة

للدكتور: محمد أحمد الشريف

أمين عام جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

بمقر الاتحاد العام للأدباء والكتاب - طرابلس

في أمسية رمضانية عام ١٩٩٨ ف

لقيام دولة أهل البيت، ذات الخلافة الراشدة كما أخبرنا
رسول الله ﷺ وآله، فيقول ﷺ:
وفي المغرب الداني رجال أئمة
بهم تجمع الأفراد في استقرار

من ليبيا يأتي الجديد

(من ليبيا يأتي الجديد).. مقولة قديمة للمؤرخ
هيردوت، ما لبثت الوقائع أن أكدتها، حيث انتقلت الثورة
بليبيا من جغرافيا ساكنة عاشت ما بين وجودها الحضاري
الأول، وانتباهتها من الغفلة عصوراً طويلة من الظلام
وأغلال القيود، إلى جغرافية تسهم بفاعلية في صناعة
التاريخ الإنساني، وتقدم للحضارة البشرية منجزات رائدة
باقتراح الإجابات عن الأسئلة منذ بداياته.

وها هي تعبر بثورتها عاماً بعد عام من عمرها
المجيد.. وتؤكد تلك المقولة القديمة (من ليبيا يأتي الجديد)
فكما قدمت الثورة الإسلامية للإنسانية أجوبة عن الأسئلة
الملحة، وكما قدمت نموذجاً فريداً في الصمود والتحدى،
فإنها تقدم اليوم أمثلة جديدة، وأنموذجاً جديداً في السلام
والمحبة والحرية.

تمبكتو.. تاريخ ومعالم:

تقع مدينة تمبكتو.. أو تمبكتو.. أو تينبكتو، على طرف أقصى المنحنى الشمالى لنهر النيجر قبل أن ينحدر إلى الجنوب الشرقى عبر الصحراء، وتبعد المدينة حوالى عشرة كيلو مترات من النهر، وتنتشر على رقعة صحراوية رملية، وهى الآن عبارة عن مدينة صغيرة، وتوجد بها المساجد الأثرية التى عرفت بها، وبها أيضاً معهد أحمد بابا التمبكتي- وخزانتة الشهيرة بالمخطوطات.

وتطمس الرمال آثار تلك العاصمة التجارية والثقافية العظيمة التى كانت حاضرة الصحراء على مدى قرون عديدة.

ويقال بأن تمبكتو تأسست فى نهاية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الإفرنجي)، أسسها الطوارق، وأعطوها اسمها، حيث كان هؤلاء يقصدون هذه البقاع قرب النهر بحثاً عن المراعى لمواشيهم، وكان المسافرون القادمون بالطرق البرية عبر الصحراء أو الذين يأتون

عبر النهر، يلتقون هناك عند تمبكتو لتبادل المنافع الاقتصادية.

وقد زار الرحالة- ابن بطوطة- هذه المدينة، أثناء رحلته إلى بلاد السودان الغربى، وتحدث عن النشاط الثقافى والاقتصادى والسياسى لهذه المدينة وكان ذلك فى عام ٧٥٤هـ، كما زارها الحسن بن محمد الوزان الفاسى المسمى (ليون الأفريقي) فى رحلته إلى بلاد السودان التى صحب فيها عمه فى مهمة سفارة بين ملك فاس- محمد الوطاطى- وملك السنغاي- محمد أسكيا الكبير- فى عام ٩١٧هـ ١٥١١ف، وجاء فى كتابه الشهير (وصف أفريقيا) بأن اسم هذه المدينة حديث، وأن منسى سليمان قد بناها عام ٦١٥هـ، على بعد نحو ١٢ ميلاً من أحد فروع نهر النيجر، والمقصود هنا هو توسيع وإعمار هذه المدينة فى عهد ملوك إمبراطورية مالى.

أما بُعد المدينة أو قربها من النهر الذى جاء فى روايات متعددة عنه فى كتب الرحالة والمؤرخين فهو يرجع للتغيير الطفيف الذى كان يطرأ على مجرى النهر

عبر القرون.

ويصف (حسن الوزان) ما رآه في المدينة أيام حكمها من قبل ملوك السنغاي، فيقول: في وسط المدينة مسجد كبير بالحجر المركب بالطين والجير، وبنى على يد مهندس أندلسي، وهو المهندس الذي بنى فيها قصر الملك، وهناك دكاكين كثيرة للصناع والتجار ولاسيما دكاكين نساغى أقمشة القطن، وتصل أيضاً إلى تمبكتو أقمشة أوروبا، والسكان أغنياء مترفون، وتوجد بتمبكتو عدة آبار مأوها عذب، بالإضافة إلى ما يصل إلى المدينة من ماء في قنوات عند فيضان النهر.. والحبوب والمواشى كثيرة جداً، لكن الملح قليل جداً، ويستورد من بعيد.

ويضيف الوزان: وكنت في تمبكتو عندما كان الملح يساوى هناك ثمانين مثقالاً، وللملك خزينة كبيرة من النقود والسبائك الذهبية، والبلاط الملكي على قدر كبير من النظام والأبهة- وهذا الملك عدو لليهود، وهو لا يريد أن يقطن أحد منهم في المدينة، وإذا علم أن تاجراً

يخالطهم ويتاجر معهم صادر أمواله.

وفي تمبكتو عدد كبير من القضاة والأئمة، وتباع أيضاً فيها مخطوطات كثيرة، وتدر أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع، وتستعمل الذهب الخالص بدلاً من العملة المسكوكة في المعاملات التجارية.

انتهى حديث الحسن الوزان وهو نموذج لما تحدث به الرحالة والمؤرخون عن هذه المدينة التي يجمعون على أنها بنيت وأسست في عصور الإسلام، وأن علماءها يفخرون بأنها المدينة التي لم يذكر فيها غير اسم الله.

وقد كانت تمبكتو مركزاً تجارياً وثقافياً وسياسياً هاماً لعدة قرون وخاصة أثناء حكم (منسى موسى الأول) من ملوك مالي، والذي حكم من عام ١٣٠٧ إلى ١٣٣٢ف، وكانت رحلته إلى الحج في عام ١٣٢٥ف ذات أثر كبير على تمبكتو، حيث عرف الناس عن ثرائها ونشاطها الاقتصادي عن طريق البذخ الذي ظهر به موكب (منسى موسى) أثناء إقامته في القاهرة، وصرفه للذهب، حتى أنه يقال: إن ذلك أدى إلى انخفاض سعر الذهب لوقت طويل.

كما كان لهذا الحج نتائج كثيرة بالنسبة لتاريخ السودان الغربى اللاحق بصفة عامة، ومدينة تمبكتو بصفة خاصة، ومنذ تلك الفترة شغل السودان الغربى الأذهان، وتزايد اهتمام مصر والمغرب والشمال الأفريقى والبرتغال، والمدن التجارية الإيطالية بامبراطورية مالى ومدينة تمبكتو..

وعندما عاد (منسى موسى) إلى بلاده من رحلة الحج، اصطحب معه المهندس المعمارى الشهير - أبا إسحق - فبنى المسجد الجامع فى مدينة- غاو- وفى مدينة تمبكتو بنى هذا المهندس الجامع الكبير (جنغير بير) وقصر للملك فيها..

وقد اجتذب منسى موسى إلى بلاطه أعداداً كبيرةً من العلماء والمتقنين وكان هو نفسه على ثقافة عربية رفيعة، وقرَّب منه القضاة والكتاب وافتتح الدواوين والمدارس لتحفيظ القرآن، واقتنى أعداداً كبيرةً من الكتب أثناء رحلة الحج، وأصبحت تمبكتو بفضل ذلك مركزاً حضارياً كبيراً فى المنطقة وفى العالم، وأصبح مسجد تمبكتو الجامع -

الذى بناه موسى- نموذجاً لما سمي بالطراز المعمارى السودانى.

وقد عبّر منسى موسى نفسه عن هذا الازدهار العلمى والاقتصادى والسياسى لمدينة تمبكتو فى عهد امبراطورية مالى بصفة عامة، فى تصريح له عندما كان فى القاهرة أثناء رحلة الحج، قائلاً بأن سلفه قد توفى فى بعثة بحرية لأنه أبى أن يصدق بأنه يتعذر بلوغ نهاية البحر المحيط (المحيط الأطلسى) الذى كان هو الحدود الغربية لامبراطورية مالى، فصمم على بلوغ هدفه حيث جهز بعثة بحرية مكونة من ٢٠٠ سفينة مزودة بالمال والرجال، ومن بينهم عدد من علماء تمبكتو الذين جاء بعضهم من الأندلس ومن المغرب ومن الشمال الأفريقى واستقروا بها، وعندما لم تعد سفن هذه البعثة، تولى الملك بنفسه قيادة بعثة بحرية أكبر مجهزة بعناية ضمت ألفى سفينة، ورحل ولكنه لم يعد.

إن بعض الكتاب الذى أُرخوا لمدينة تمبكتو وكتبوا عن علمائها وعن السودان الغربى قد أثاروا مشكلة اكتشاف

شعب (المالينكا) للقارة الأمريكية، وبذلك يكون هؤلاء قد بلغوا السواحل الأمريكية قبل (كولومبس) بقرنين من الزمان، وقد ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين، دراسات عن آثار ولقيات أثرية في أمريكا تتصل بامبراطورية مالى ومدينة تمبكتو.

لقد تواصل ازدهار هذه المدينة على يد خلفاء (منسى موسى الأول) من ملوك امبراطورية مالى، ومرت بفترة تدهور لمدة أربعين عاماً، عندما غزاها - سنى على - فى سنة ١٤٦٨ ف، وهو الغازى الذى عاث فيها فساداً وتخريباً وكان من أصل السنغاي، ولكن خلفاؤه من ملوك السنغاي أقاموا حضارة كبيرة فيها، وكان لأسرة (الأسكيا) التى حكمت من سنة ١٤٩٢ إلى ١٥٩٢ ف، على مدى قرن كامل، أثر كبير على زيادة إعمار المدينة وإعطائها الدور الثقافى الذى عرفت به، وكان - أسكيا محمد - من أصل سونكى من عشيرة (تورى) المنحدرة من - التكرور - وعلى الرغم من كونه أمياً، فقد كان مسلماً ورعاً وسياسياً بعيد النظر، وكان انتصاره فى السودان

الغربى انتصاراً للإسلام. وهو الآخر قصد الحجاز للقيام بفريضة الحج مثلما فعل منسى موسى قبل قرن ونصف من الزمان، وكان ذلك فى عام ١٤٩٦/١٤٩٧ ف، وكان حجه هذا بدافع التقوى وكذلك بدوافع سياسية.

وفى القاهرة التقى بعلماء الأزهر وبصفة خاصة الشيخ السيوطى وعاد إلى السودان مزوداً بالشرعية الإسلامية وباعتراف عالمى بسلطانه. ويقال: إنه هو الذى حفر قناة تمبكتو المعروفة، وكانت له عناية كبيرة بالزراعة، وفى عهده وعهد أسرة - الأسكيا - ازدهر العلم والقضاء فى المدينة وكان للقاضى فيها شأن كبير، كان يعينه السلطان مدى الحياة، وكان منصب القضاء طوال القرن السادس عشر الإفرنجى فى أسرة القاضى (محمود بن عمر الاقيت) من ١٤٩٩ إلى ١٥٤٨ ف، كما قدمت هذه الأسرة الأئمة لمسجد سنكورى، واستمر فى هذه الفترة دور تمبكتو كحاضرة تجارية عبر الصحراء الكبرى، على صلة بالأسواق الكبيرة فى الصحراء وفى الشمال الأفريقى من غدامس إلى طرابلس إلى تونس، ومن ثم بلدان أوروبا

المطلّة على البحر المتوسط، كما كانت هناك طرق تجارية أخرى إلى مصر والمغرب ومراكش والسودان. وازدهرت المبادلات الاقتصادية في المدينة وأمّها التجار والصناع من كل مكان، وكانوا أحياناً أثناء إقامتهم في المدينة يسكنون في مناطق عرفت بأسماء المدن والبلاد التي جاؤوا منها. ومن بين الأحياء التي عرفت قديماً وما زالت باقية حتى الآن (حي الغدامسية).

وتؤكد المخطوطات التي يحتفظ بها معهد أحمد بابا التمبكتي حتى الآن بأن المدينة كانت على صلات كبيرة بالمراكز المعروفة، وأن عدداً كبيراً من هذه الوثائق والسجلات المخطوطة تعود إلى غدامس وطرابلس. وبلغ عدد سكان المدينة في ذروة مجدها في القرن السادس عشر الإفرنجي ثمانين ألف نسمة في عهد الأسكيا (داود) الذي حكم في الفترة من عام ١٥٤٩ وحتى ١٥٨٣ ف، وكانت يومها العاصمة الاقتصادية والمدينة المقدسة للسودان كله لشهرة علمائها وأوليائها وجامعاتها، فقد كانت النموذج للمكانة التي حظى بها العلماء وطلاب العلم

وما أغدقه عليهم السلطان والسكان من تجميل وتكريم.. وكان بالمدينة ثلاثة مساجد جامعة كبيرة: مسجد جننغير الذي أشرنا إليه في السابق، ومسجد سيدي يحيى، وجامع سنكوري، وهو مسجد بنى على نفقة سيده في شمال المدينة في منطقة يقال لها- سنكوري- وقد بنى المسجدان الأخيران في النصف الأول من القرن الخامس الإفرنجي، وأصبح الأخير جامعة سنكوري العريقة التي اشتهرت بها المدينة..

وكثيرون هم العلماء الذي عرفت بهم المدينة منهم: الشريف سيدي يحيى الذي توفي عام ١٤٦٤ ف، والقاضي محمود بن عمر أقيت، الذي توفي عام ١٥٤٨ ف، والقاضي العاقل، وأحمد بابا التمبكتي الذي أرخ لعدد من علماء المدينة وفقهاؤها في كتابه (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) وتوفي عام ١٦٢٦ ف.

كل هذه الأمور أكسبت المدينة لقب (المدينة المقدسة) في السودان، وعملت جامعاتها على نشر الثقافة الإسلامية واللغة العربية في كل مناطق السودان الغربي بل إن تأثير

تمبكتو نتيجة لعوامل عديدة عصفت بالمنطقة، كان من بينها النزاعات المحلية، بين القوى المتنافسة في السودان الغربي، وأحياناً داخل المملكة الواحدة، بل الأسرة الواحدة، فإن تمبكتو صمدت في وجه كل المحاولات الخارجية حتى سقطت في عام ١٨٩٤ ف في يد الاستعمار الفرنسي.

ولأن الفرنسيين يدركون المركز الحضارى الذى تحتله هذه المدينة فى المنطقة فقد تعمدوا إهمالها وحرموها من الطرق والخدمات، وتشرذم معظم سكانها فى مناطق أخرى.

إن الذى تجدر الإشارة إليه فى الحديث عن هذه المدينة العظيمة هو أن ذبوع صيتها فى التجارة وما يتعلق بامتلاء أسواقها بالسلع النفيسة والمطلوبة، وخاصة الذهب والنحاس، وشهرتها الثقافية التى طبقت الآفاق، كل ذلك قد جذب إليها أنظار المغامرين والطامعين والباحثين عن الذهب والمجد والشهرة، واستكشاف مجاهل ما وراءها من بلاد كان يحدث عنها الرحالة الذين زاروا المدينة

علمائها وصل إلى بقية أنحاء العالم الإسلامى فى أفريقيا الشمالية، وفى المشرق الإسلامى، كما وصل تأثير هؤلاء العلماء إلى أوروبا، حيث تسجل لنا الروايات أن أحد أطباء تمبكتو قام بعلاج أحد أمراء أوروبا.

وتزخر المصادر التاريخية والشفوية بالكثير من المعلومات عن مظاهر النشاط الفكرى والعلمى والدينى لمدينة تمبكتو، فبالإضافة إلى جامعاتها فإن المدينة فى نهاية القرن السادس عشر الإفرنجى كان بها عدد ١٨٠ مدرسة قرآنية والآلاف من الطلاب القادمين من جميع أنحاء السودان والساحل.

تيمبكتو.. محط أنظار الطامعين:

بعد حكم السنغاي فتح المغاربة مدينة تمبكتو أيام السلطان أحمد المنصور الذهبى، ومع مرور الأيام أصابها الوهن، والضعف والخراب، ويسجل عالمها أحمد بابا التيمبكتى.. الذى اقتنيد مع الأسرى إلى مراكش، آثار الخراب الذى لاقته المدينة بعد هذه الكارثة كما يعبر هو، وبالرغم من ضعف المكانة الاقتصادية التى لحقت بمدينة

والتقوا أهلها، فجاءها هؤلاء من كل حدب وصوب.
 اقترن الأوروبيون بتمبكتو في القرن التاسع الهجرى
 (الخامس عشر إفرنجى) حيث كان يتم التعامل الاقتصادى
 بين المدن التجارية الإيطالية- (فلورنسا) بصفة خاصة-
 وبين تمبكتو عن طريق الشمال الأفريقى- طرابلس
 وتونس- ثم عن طريق القوافل إلى المدينة، ومن الذين
 زاروا تمبكتو من الأوروبيين فى ذلك القرن (فلورنتين
 بيناديتو داي) وذلك عام ٨٧٥هـ — ٤٧٠ف، وانقطعت
 الصلة بين تمبكتو وأوربا بعد القرن السادس عشر
 الإفرنجى.

وكان الأوروبيون يتحدثون عنها آنئذ حديثهم عن مدينة
 عزيزة المنال، تكتنفها الأسرار، جميلة بالغة الجمال،
 وافرة الثروة باتجارها فى الذهب وريش النعام والعاج،
 وظلت محجة بالأسرار، وخاب سعى الكثيرين فى جلاء
 سرها، وقتل فى سبيل ذلك الميجر (لينغ)، ثم أخيراً
 استطاع أن يصلها المغامر الفرنسى (رينيه كاييه) فى عام
 ١٨٢٨ف، وبالرغم من أنه بقى فيها فترة قصيرة جداً من

ذلك العام من يوم ٤/٢٠ إلى يوم ٤/٥/١٨٢٨ف فى
 ضيافة أحد أعيان تمبكتو بعد أن ادعى الدخول فى
 الإسلام، فإن الفرنسيين سجلوا اسمه فى التاريخ الفرنسى
 كأحد كبار المستكشفين، لأنه كان يبحث عن اكتشاف أيسر
 الطرق عبر الصحراء إلى هذه المناطق لتسهيل مهمة
 جيوش فرنسا.

وبعد استعمار فرنسا المدينة أصبح البيت الذى أقام فيه
 هذا المغامر معلماً أثرياً من معالم تمبكتو زاره الرئيس
 السابق (ميتران) قبل أعوام أثناء توقفه بالمدينة.
 وحرص الكثير من (بعثات الصداقة) فى أوقات
 ضعف هذه المدينة أن تأتى إليها من بعض الدول الطامعة
 فى ثرواتها، ومن بينها بعثات الصداقة من البرتغاليين
 الذين كانت لهم صلات ومراكز على الساحل الأفريقى
 الغربى، وتسجل كتب التاريخ أن الاستعمار المباشر
 لأفريقيا قد بدأ حوالى العام ١٨٨٠ف، واستمرت هذه
 المرحلة فى إخضاع أفريقيا حتى عام ١٩١٩ف، ويسمى
 الأوروبيون من منظورهم هذه المرحلة (مرحلة التهذئة)

أو (إجلال السلام)، وهذه هي الفترة التي تم فيها تنفيذ تقسيم أفريقيا على أرض الواقع بعد أن تم ذلك على الورق في مؤتمر برلين عام ١٨٨٤/١٨٨٥ ف، وكان الأوروبيون بحلول عام ١٨٨٠ ف- بفضل نشاط المستكشفين والمبشرين الأوروبيين- يعرفون عن أفريقيا وأصقاعها الداخلية الكثير، وهذا لا يعنى أنه لم يكن هناك نفوذ للدول الأوروبية في مناطق كثيرة من القارة قبل ذلك التاريخ.. فقد كان هناك الكثير من التعامل التجارى والسياسى وبسط النفوذ عن طريق اتفاقيات الصداقة ودبلوماسية السفن الحربية.

تلك كانت مدينة تمبكتو ومكانتها التاريخية اقتصاداً وتجارة، وثقافة، وعلماً، كانت جوهرة الصحراء، أو المدينة العجيبة، أو المدينة الغامضة، وكان الحديث عنها يلهب خيال الباحثين عن الثروة والمغامرة والمجد، كتب عنها الكثيرون، وتحدث عنها الناس فى أوج عظمتها أحاديث فيها الكثير من الحقيقة، وفيها الكثير من الأساطير التي تحرك دوافع الشوق إليها، والرغبة فى الوصول إلى

عجائبها، وكان الوصول إليها صعب ودونه أهوال الصحراء ومخاطرها، وخاصة بالنسبة لأولئك الذين لم يتعودوا هذه المخاطر من الذين هم وراء عالم الإسلام فى أوروبا.

لذلك جرت فى لغات الأوربيين وحتى عهد قريب عبارات تتصل بالإشارة إلى بعد تمبكتو عن كل شئ معروف فى العالم، وإلى غموضها يقول الرجل: (إنه سيصل إلى بغيته حتى ولو كان ذلك فى تمبكتو) و (أن أمراً ما هو بعيد المنال بعد تمبكتو).

والخيال الأوروبى معروف فى إضافته لهالة خاصة على بعض مدن الإسلام بقصد توجيه الأنظار للوصول إليها، وتشابه الأدبيات التي تعرضت لذلك بين كل من تمبكتو ومدينة سمرقند فى منطقة ما وراء النهر فى المشرق الإسلامى (جمهورية أوزباكستان الحالية) ومعروفة القوائد الشعرية التي كان يحفظها الإنجليز عن الطريق الذهبى إلى سمرقند.

وكل هذه الأدبيات والخيالات تتصل دائماً بالذهب

والحرير والقطن والنحاس والتجارة، وتتصل أيضاً بالكتب والمخطوطات والعلم ووصف البلدان، والمسالك والممالك، يشجع على ذلك الدول والمؤسسات التجارية والكنائس التي تريد الوصول إلى مراكز الذهب والثروة ومواطن المواد الخام، ومعرفة المسالك والطرق إليها.

وقد تكون نتيجة لهذه الأدبيات تراث كبير في جامعات أوروبا ومعاهدها التي أصبحت في خدمة الرحالة والمستكشفين، وبعد ذلك ساعدت على تسهيل مهمة الاستعمار المباشر.

أبعد من تمبكتو:

وإذا كنا في هذه الأمسية الرمضانية الكريمة نحاول أن نتعرف على مدينة من مدن الإسلام، وحاضرة من حواضر أفريقيا، فإنه لا يمكننا أن نتوقف قط عند معرفة تاريخها وجغرافيتها والتوسع في ذلك على الرغم من أهمية هذه الأمر، وبإمكان أي منا أن يرجع إلى القواميس والكتب وسيجد هذه المعلومات التي حاولنا أن نلخص بعضها فيما تحدثنا عنه من صفحات حتى الآن، ولكن

الذي نريده هو أن نطل على أشياء ومعانٍ وراء هذه المدينة، ونتعرف على أمور أبعد من تمبكتو، بأن نستشرف الآثار الفكرية والنفسية لهذه المدينة، فكأننا نريد أن نبحث عن شيء هو أبعد من هذه المدينة، أبعد من تاريخها، أبعد من جغرافيتها، وأن نسبر أغوار هموم تقع وراء تمبكتو.

فكأننا هنا نبحث عن الذي هو أبعد من هذه المدينة، وعماً وراءها زماناً ومكاناً ومعنىً، وطبيعي أن هذا ليس هو البحث الذي يخرج به المتأمل في هذه المدينة، الدارس لدورها الحضاري والثقافي..

نحن قد رأينا انبهار الناس والغربيين بصفة خاصة بذلك الازدهار الحضاري لتمبكتو. وكيف تعاملوا معه وأعدوا الوسائل للوصول إليها وتجاوزوها إلى ما وراءها، فهؤلاء قد فتنتهم هذه المدينة بخيراتها، وبأنها قصية في آخر العالم المعروف لديهم في ذلك الوقت، فهي بوابة أخرى من عالم الإسلام، ومواجهة مع أجزاء نائية في جهة ثانية، إبان ازدهار تمبكتو، فإن هذه المدينة

زائدين كان يفتقر إليها معظم من لا يدينون بالإسلام]. هنا بدأنا نقرب من الدرس المستفاد من تاريخ تمبكتو، وبدأت تتضح ملامح الصورة التي ترسم فيها الخطوط والدوائر التي تشابكت وتقاطعت حول الرمز الذي يمثله هذا المركز الحضارى الإسلامى، هذه الصورة تعكس لنا ظلالاً وتقاسيم عن الآخر، الذى هو بالنسبة لعالم الإسلام أوروبا والغرب.

وعندما يحاول الباحث أن يبرز معالم هذه الصورة، ويتعرف على أبعادها ليس فقط فى عصور ازدهار تمبكتو، ولكن فى الأزمان اللاحقة وحتى الآن، فإنه لابد أن يتوخى الصدق والموضوعية، وأن يبتعد عن التعصب والإفراط فى الذاتية، وأن يتجنب فى عرض ذلك، الخطابة والمواعظ التى تدعو بالويل والثبور على هذا الآخر الذى تربص ويتربص بنا الدوائر.

تشويه ثقافة الآخر:

الغربيون لهم تاريخ طويل فى القدرة على التعرف على ثقافة الآخر الذى يكون فى مواجهتهم، أو من الممكن

البعيدة كانت مطمح الاستراتيجيين منهم الذين يريدون تطويق هذا العالم من الخلف وقطع صلته مع ذلك العالم المجهول فيما وراء أرض السودان.

ولا يحتاج المرء هنا أن يطيل فى الحديث عن النظريات التى تؤكد على الجوانب الاقتصادية والعوامل المادية فى تفسير أطماع الغربيين وتطلعاتهم التى جعلت رحالة الغرب، ووفودهم تجمع المعلومات اللازمة لتحقيق بلوغ تلك الأهداف، فهذه الأمور أصبحت معروفة وتعج بها كتابات المؤرخين والساسة: لكن العناية هنا لابد من أن تتجه إلى اهتمام الغربيين فى التعرف على ثقافة المسلمين فى مواقعها المختلفة والمتنوعة والتى تمثل تمبكتو مركزاً من مراكزها، وقد تأكد ذلك فيما بعد، حيث يقول أحد الباحثين الأوروبيين وهو (مايكل كرودر) فى كتابه عن (غرب أفريقيا تحت الاستعمار) حيث يقول: [فإنه لما كان فرض حكم البيض يعنى بالنسبة للمجتمعات الإسلامية فى غرب أفريقيا خضوعها للكفار، فإن تلك الشعوب عمدت إلى مقاومة الأوروبيين بحماس وإصرار

أن يكون في مواجهتهم، وقدرة على استيعابها والانتقاء منها، كما أنهم ذووا خبرة طويلة في تشويه ثقافات الآخرين بما يفيد أهدافهم الاستراتيجية، وحتى عندما تتلمذ الأوروبيون على العلم والفلسفة والفكر الإسلامى، واستوعبوا علوم العرب التى خلصتهم من ظلام العصور الوسطى ونقلتهم إلى عصر النهضة، ومن ثم إلى العصر الحديث، فإنهم مارسوا كل ما يتصل بالانتقاء والسطو والتشويه وظهرت آثار ذلك جلية حتى بعد عصر التنوير. فى الأسبوع الماضى كنا فى احتفال لتأبين أستاذ فاضل هو المرحوم الدكتور محمد ياسين عريبي، وهناك تحدثنا عن جهد قام به لإجلاء جانب من هذا الموضوع، فهو بدراسته المقارنة لفلاسفة القرن الثامن عشر، وجد أن كبار الفلاسفة وعلى رأسهم (مانويل كانط) لا ينقلون أفكاراً، ولكن ينقلون صفحات كاملة من الغزالي ومن غيره من علمائنا، ولا ينسبوننا إليهم على الرغم من أن الغزالي قد ترجمت كتبه أربعين عاماً بعد وفاته. فهنا الغربيون لا يشعرون بالإحراج، ولا يشعرون

بالذنب عندما يتبنون أشياء هى ليست لهم، ويعتبرونها أصيلة فى ثقافتهم من أجل بناء الشخصية الخاصة بهم. أما عملية تشويه تراث المسلمين والإسلام كدين، فذلك من الأدبيات الشائعة والمعروفة فى العصر الوسيط، فالدكتور على خشيم والدكتور أبو حميرة ترجم الإثنان كتاباً عن اللغة الإنجليزية عن التشويه فى المبادئ الإسلامية فى العصر الوسيط وكيف كان يتم ذلك. هذا التشويه الذى تم فى العصر الوسيط بالنسبة للمدين الإسلامى وللتقافة الإسلامية بصفة خاصة، كانت مادة ووقوداً للحروب الصليبية، ثم أصبحت فى إطار حركة الاستشراق، حركة أكثر عمقاً لتدخل فى برنامج الأعداء للمواجهة مع العالم الإسلامى، وتطور بعد ذلك فى شكل مناهج دراسية فى معاهد الاستعمار، وانتهت أخيراً فى محددات تفصيلية فى مؤسسات الاستخبارات والتجسس التى أفرزتها الصليبية والصهيونية المعاصرة. وهذا التشويه الدينى للإسلام من الخارج ومن الداخل مازال موجوداً على مستوى الحكومات والمؤسسات

الغربية على الرغم من ادعاءات العلمانية والموضوعية في التعامل مع ثقافات العرب والمسلمين.

مناهج لتغيير الأذهان:

فمثلاً (جمعية الدعوة الإسلامية العالمية) في الثمانينيات مع عدد من العلماء المسلمين والكاثوليك والبروتستانت قامت بدراسة في دولة أوروبية كبرى صديقة للعرب في مناهج التعليم العام، في كتب التاريخ والحضارة والجغرافيا، وما يكتب عن الإسلام وعن الغرب، فوجدنا معلومات مغلوطة مهولة وأشياء غريبة جداً، أشياء لا يمكن أن تتم كتابتها بشئ من السهو، أو بشئ من عدم المعرفة، أو بشئ من الجهل، ولكنها أشياء تكتب من طرف مجموعة من العلماء والدارسين لتغيير أذهان الأجيال القادمة، ونحن اعتبرنا هذا عدواناً على عقل الأطفال في هذه المدينة، على عقل الإنسان، لأنك أنت لا تستطيع أن توقع اتفاقية سلام مع إنسان بُنى على أساس أنه يعتبرك - (لأنك عربي) - خارج نطاق الإنسانية أو خارج البشر وهو معذور في هذا، لأن الثقافة التي

صبت في ذهنه في الابتدائي إلى نهاية التعليم العام هي أفكار غير صحيحة، وتمت الإشارة إلى كل نص من النصوص والتنبيه عليه، وطبع الكتاب في مؤسسة تعنى بالكتب الثقافية والتربوية في تلك البلاد.

ثم عندما أعلننا عن ذلك، اتضح أن كل الدول الأوروبية والأمريكية تقوم بذلك، وأنا هنا لا أتحدث عن كاتب كتب كتاباً، بل أتحدث عن برامج محددة تعطى لتكوين أجيال وأفراد وعناصر وأشخاص تشوه فكرة الحضارة الأخرى في أذهانهم.

المثل الآخر، مثل (سلمان رشدي) وآياته الشيطانية، هذا الكتاب فيه أكثر من رأى حول الطريقة التي تمت مواجهته بها من طرف بعض الدول الإسلامية فيها نظر، ولكن الذي يهمنا هو ما وراء الكتاب، التوزيع الهائل والترجمة الهائلة له، والتغطيات الكبيرة له، والتجهيز الإعلامي له، ثم استقبال الرؤساء الأوروبيين والأمريكيين كلهم لهذا الرجل كرمز للنيل من نبي الإسلام وتشويه الدين الإسلامي، وتشويه هذا الآخر بالنسبة لهم.

لتشويه حضارة العرب وتطوير الأمة العربية، وهذا التطويق يتضح بجلاء أكبر وأكثر، إذا عرفنا أن ندوة كبيرة عقدت في العام الماضي في جمهورية مالي تبحث في أصول قبائل (الفولاني)، وتدّعي أنها ترجع في أصولها إلى القبيلة الإسرائيلية الثالثة عشر، وهو نفس الادعاء الذي تم به حشد قبيلة (الفلاشا) من قبل من أجل تغلغل الإسرائيليين في أفريقيا.

هذا- الآخر- الذي نحاول أن نتعرف عليه في هذا الإطار الصحراوي البعيد يفلت منا دائماً، وهو يختفي في غابات من ادعاءات البحث العلمي، وفي أحراش القول بالدراسات الموضوعية، ويفر منا في حقول فرق السلام، والجمعيات غير الحكومية، والمؤسسات الإنسانية، ومنظمات حقوق الإنسان، ولكننا بشئ من تدقيق النظر نجده دائماً هناك يتربص في جحافل الغزو الفكري الذي يغيب عقولنا ويلغى شخصيتنا، ويغري البعض الآخر بالتطرف والشعوذة فيخربون ديارنا من الداخل لتدوسها سنايك خيول الغازين لربوعنا.

فهم- الآخر- الذي يشوهنا بقصد، وليس كاتب من الكتاب له رأى، له مدرسة ويحاول أن يكتب وجهة نظر. الصورة المعكوسة (روجيه غارودي) عندما كتب عن أساطير بنى إسرائيل اضطهد الرجل وحوكم ولم يستقبله أحد، ولم يترك ليهنأ بعيشه، أعنى صورة- الآخر- بالنسبة لنا الذي التقيناه هناك في تمبكتو.

دور اليهود في تمبكتو:

وحتى لا نبتعد عن تمبكتو كثيراً، فإنه قد ظهرت في السنوات الثلاث الماضية دراسات وبرامج إعلامية تحاول أن تبرز دور اليهود في حضارة تمبكتو، وتذهب إلى أبعد من ذلك بإغراء بعض سكانها للإدعاء بأنهم من أصول يهودية، وهناك أشخاص موجودون الآن، يدّعون أنهم ينتمون لبعض الهبات والمساعدات، ويؤكدون على أن أسرهم قد اضطرت في فترة ما في الماضي للدخول في الدين الإسلامي، وبالتالي هم يعودون إلى أصولهم اليهودية.

وهذا الأمر يقع في دائرة المحاولات الصهيونية

جهاد القائد فى أفريقيا:

من هنا كانت (الصلوات الجامعة) التى قادها وأمَّها الأخ العقيد معمر القذافى فى نيامى، وكانو، وإنجamina، هى الرد على هذا- الآخر- الذى يشوه التاريخ ويزيف الواقع، وهى استنهاض لمسلمى أفريقيا لتعود تمبكتو من جديد مركزاً للإشعاع الحضارى للثقافة والعلم، والفكر لكل الناس، لا للذين يبحثون عن الذهب والماس، وعن مسالك ومسارب أفريقيا من أجل استعمارها واستغلالها. ولعل العرب والمسلمين بعامة لم يدركوا أبعاد هذه الصلوات التى احتشد فيها الملايين من مسلمى أفريقيا، واجتمع بمناسبتها المئات من الزعماء وأئمة المسلمين فى هذه القارة، لم يدركوها الإدراك الحقيقى الصحيح، ولكن الذى أدركها وحسب أبعادها هو ذلك- الآخر- الذى رأى فيها الخطر على مخططاته فى أفريقيا وفى الوطن العربى، فجعلت مؤسساته الإعلامية الموجهة توحى حتى لبعضنا كيف أن الجماهيرية تقوم بهذا العمل الكبير فى أفريقيا من أجل رفع الحصار عنها، وهم ينسون دور

الجماهيرية الاقتصادية والسياسى والتحررى والثقافى فى أفريقيا منذ قيام الثورة.

ويكفى أن نشير فى مجال الثقافة أن الجماهيرية هى التى وقفت مع أول مدير عام أفريقى لليونيسكو وهو (أحمد مختار أمبو) الذى جاء من قرية (جلخار) إحدى مناطق امبراطورية مالى التى ازدهرت فيها تمبكتو، وهو المدير العام الذى حاول أن يقدم عملاً إنسانياً للثقافة والحرية ووقف سداً منيعاً ضد برنامج التدفق الإعلامى من جانب واحد، فكان أن انسحبت أمريكا من اليونيسكو، وعملت مباشرة وعن طريق مؤسساتها مثل (مؤسسة التراث) على التشكيك فى جدوى اليونيسكو التى أصبحت على حد زعمها يتحكم فيها الهمج.

لقد عاشت أفريقيا دونما تاريخ عام لها، أقصد دونما تاريخ مكتوب لها، هناك تواريخ لبعض مناطقها ولبعض دولها، ولبعض مراحل مناطق منها، تواريخ للمستعمرين لها، وهى تواريخ من وجهات نظر المستعمرين، ولكن الجماهيرية هى التى أعطت أفريقيا هذا التاريخ بالتعاون

مع اليونيسكو، وأصبح تاريخ أفريقيا العام فى ثمانى مجلدات بثلاث لغات حقيقة واقعة بعد أن عمل فيه المؤرخون والعلماء على مدى أكثر من عشرين عاماً، حتى يخلصوا تراث هذه القارة من تأثير هذا- الآخر- الذى يزعم بأن مرحلة استعمار أفريقيا هى مرحلة التهذئة وإحلال السلام.

الدراسات المزيفة عن أفريقيا:

إن الدراسات العلمية الغربية عن أفريقيا تزيف التاريخ وثقافات شعوب القارة، بل وتزيف حتى الإحصائيات السكانية للدول الأفريقية لتظهرها نسباً متدنيةً فيما يتصل بالمسلمين من أجل تهميشهم فى الحياة العامة، وأنا أذكر أنه فى لقاء السنة الماضية مع الرئيس (ألفا عمر كونارى) قال لى بأنه سعيد لأن الإسلام بدأ ينتشر بسرعة، ففى جمهورية بوركينا فاسو- كما يقول- تضاعف عدد المسلمين فى عشر سنوات بدلاً من ٣٥% من عدد السكان أصبحوا ٦٥%، وأنا قلت له طبعاً هذا لا يحدث عادة، وبصفة خاصة لم يحدث فى بوركينا.. الذى حدث هو أن

الإحصائيات الرسمية التى كانت تعلنها فرنسا وتعلنها الأنظمة التى كانت تابعة لفرنسا فى بوركينا فاسو أو فى غيرها، هى إحصائيات غير صحيحة، وبالتالى، الآن عندما قامت الحكومة فى بوركينا فاسو بإحصائيات صحيحة ظهر العدد الصحيح للمسلمين.

طبعاً نحن هنا لا نتعصب للمسلمين أو للعرب أو غيرهم، ولكن نحن نتحدث عن أسطورة أو عن حقيقة البحث العلمى، وأنا حاولت أن أقيد نفسى بأننا لا يجب أن نخطب، ويجب أن نتحدث بموضوعية عن هذا الأمر، وأنا مستعد لإعطاء المراجع والأرقام فيما يخص هذه الأمور.

وحتى شهر مضى، أنا شخصياً كنت أعتبر أن الإسلام غير موجود فى ملاوى، وعندما جاءنا علماء من ملاوى وجاءوا بأوراقهم وتحدثوا على أن ملاوى فيها على الأقل ٨٠% من السكان مسلمين، ولكن عندما جاء الاستعمار الإنجليزى فى أقل من قرن من الزمان منذ ٧٠ سنة، هذا الاستعمار الإنجليزى غيبيهم بالكامل، وأتى بإداريين من

الخارج وغير أديان بعض الناس، وفرض الأمية الكاملة والفقر الاقتصادي على كل المسلمين، ومنع عنهم التعليم والحج ومجئ العلماء إليهم.

الآن الدعوة القائمة هناك بسهولة تعيد إلى أذهان القبائل والسكان تراثهم، ويشعرون بأن هذا هو دينهم الذي فرّ منهم وغيبه المستعمر عنهم، وعندما تكلم القائد في كانوا تكلم عن مجموعة من هذه النقاط، عن التشويه من الخارج والداخل وتكلم عن التسامح الإسلامي، وتكلم عن تعصب الآخرين.

مع القائد في نيجيريا:

والحقيقة.. لأول مرة يجتمع خمسة أو ستة ملايين من المسلمين في منطقة متسعة ويشعرون بالاعتزاز بدينهم، وهذا أمر الإخوة الذين زاروا أفريقيا يستطيعون إدراكه، وبالإمكان إدراكه، أعنى الإنسان المسحوق ثقافياً، والمغيب ثقافياً الذي يقرأ لغة في أحسن الظروف تسخر من تراثه، عندما يشعر هذا الإنسان أن تراثه عظيم وأن دينه متسامح، وأن دينه أساسى وأنه يصنع الحضارة، وأن

له أمجاداً كبيرة، وأن له دوراً في العالم والثقافة والحضارة.. هذا الإنسان، شباب الجامعات والموظفين وكبار الناس ينطلقون. وذلك اللقاء في كانوا أحدث موجة كبيرة، و- الآخر- الذى لا يمكن أن يسمح بفرصة مثل هذه أن تفر منه، عمل على اتخاذ مجموعة من الإجراءات منها دعوة البابا- وأنا بالمناسبة لست ضد البابا فهو رجل صديقى، وأنا قابلته وأحترمه وأستمر في احترامه، وحتى القائد في حديثه عن البابا في الخطبة تكلم عنه باحترام، ولكن أصر الآخر أن تتم دعوة البابا إلى نيجيريا- ليلغى التأثير النفسى الذى أوجده هذا التجمع وهذا اللقاء فى كانوا.

فى المرة الماضية- البابا- استقبله ملايين المسلمين، والإعلام الغربى قال: بأن هؤلاء هم مسيحيوا نيجيريا، وأن عدد المسيحيين أكثر من المسلمين، وفى هذه المرة سلاطين وعلماء نيجيريا تنبهوا وطلبوا من المسلمين أن لا يأتوا لاستقبال البابا، لنرى المسيحيين الذى يستقبلونه، وعندما أصر رئيس الدولة أن يكون السلاطين موجودين

المحترمين اللذين كانا يحاولان تمرير السفير الإسرائيلي، أعنى أن البيادق من الداخل هي التي تأتي بالآخر ليمر، ولذلك (أسكيا داود) عندما منع اليهود ومن يتاجر معهم من الدخول لم يكن متعصباً لدين معين، ولكنه كانت له نظرة في الآخر، وهذا معنى (المدينة المقدسة) بالنسبة لتمبكتو عندما يقولون عنها بأنها المدينة المقدسة.

العولة فح للتغريب ومحو الهوية:

لا أريد أن أتوسع كثيراً في تتبع خيوط هذه الصورة التي تعكسها مدينة تمبكتو عن- الآخر- الذى كان يتربص بها، فالشواهد الواقعية الجلية أكثر من أن تحصى، ويكفى أن ندرك هنا بأن الحضارة العربية الإسلامية قد تعرضت فى الماضى إلى مثل هذه المحاولات من هجمات الغزو الفكرى، إلا أن هذه الهجمة حشدت لها المؤسسات الصليبية والصهيونية كل الوسائل للوصول إلى العقل العربى الإسلامى للإجهاز عليه، لأنه يشكل عقبة رئيسية على طريق (العولمة) التى يريدونها بسطاً لتقافة الغرب، وتلوين كل شئ بألوان الغرب وثقافته

فى الاستقبال الرسمى ليتحدثوا مع البابا، واجهوا البابا وقالوا له: نريد أن تحدثنا عن نيجيريا، هل الغالبية مسلمون، أم الغالبية مسيحيون، وقد تحدث البابا بكل وضوح وقال: أنا أقول أمامكم إن المسيحيين أقلية.

وطبعاً نحن هنا لا نعد رؤوس المسلمين ولا رؤوس المسيحيين، ولكن نتكلم عن الوضع الحضارى الذى تغير. ولقاء القائد كان يوم ٢ مُحَرَّجُ الموافق التاسع من شهر الماء من العام الماضى، أى: ١٩٩٧، وقبل أقل من شهر فى مدينة كانو جاء سفير إسرائيل وعرض مساعدات على التجار بمبلغ ١٥٠ مليون دولار، وكان قد بعث برسائل لأن يتم استقباله من طرف السكان والعلماء، فرفض هؤلاء فاستعان بسفيرى دولتين عربيتين كبيرتين ليأتيا به إلى كانو وليقولوا لسكانها وعلمائها: إن هذا السفير الإسرائيلى لا غبار عليه وهو يساعدكم، وطبعاً رفض العلماء لقاءه واستقبله الحاكم العسكرى، وقد سجلت الإذاعة شريطاً عن الزيارة وهو موجود لدينا فى جمعية الدعوة الإسلامية العالمية يمكنكم مشاهدة السفيرين

وعاداته.

لقد سجل المتابعون، الملايين من الشباب الأفريقيين الذين أصبحوا يعتزون بالتراث الإسلامي بعد الصلوات الجامعة في العامين الماضيين، وأصبحوا يتصدون لبرنامج التغريب ومسح الهوية، وأصبحت تمبكتو بالنسبة لهم من جديد رمزاً للاعتزاز بثقافتهم وبناء مستقبل أفضل لهم، ومستقبل أفضل لهذا العالم الذي يجب أن يشارك الجميع في بنائه وصون الحياة الإنسانية الكريمة فيه، وهذه هي المبادئ التي تبرزها ثقافتنا نحن، الثقافة المتسامحة التي تنتظر للناس جميعاً بأنهم أبناء آدم وأنهم إخوة بإمكانهم أن يعيشوا في عالم واحد متسامحين متعاونين من أجل تنمية حقيقية.

طبعاً نحن أيضاً أحياناً في تاريخنا، هناك أعمال قام بها أفراد أو ملوك.. لكنني لا أتحدث عن الهنات، وعن التوجهات التي تقع دائماً عندما نصادفها في الهامش، ولكنني أتحدث عن الأشياء المبرمجة ولا أريد أن أذكر أمثلة، وهذه الأمثلة موثقة، وبالمناسبة الأسبوع الماضي

فقط جاءتني دراسة من ثلاثة أعداد متتالية في صحيفة سيارة في كندا وتطبع هذه الدراسات أيضاً في أمريكا، ولعلها سوف تطبع أيضاً في أوروبا، وهي دراسات عن القرآن، وهذا الأمر كان موجوداً عند المستشرقين وتطور عند المدارس المعاصرة في محاولة لزعزعة هوية العرب والمسلمين على اعتبار أن القرآن هو الذي يوحدهم جميعاً على مختلف مشاربهم ومذاهبهم، والعرب أنتم تعرفون أنهم يعتبرون حتى الذي يشكك في الشعر الجاهلي هو مشكك في القرآن، وبالتالي هم بدأوا يشككون في القرآن وفي آياته، وفي طريقة جمعه، وهناك مدارس يهودية وإسرائيلية كثيرة تشتغل على هذا الأساس، ولسوء الحظ، والأمر الذي يزعج ولا يسر هو أن بعض الذين تعاونوا مع هذا- الآخر- تحت غطاء، وأنا أعتقد أن الكثيرين مخدوعون بموضوع البحث العلمي من وجهة النظر الغربية، أعني أن الكثير من الناس عندما يكونون في مثل هذه الغرفة لا يرون إلا هي، ولا يرى أن هذه الغرفة هي في بناية عامة، وهذا العمارة العامة قد تكون لها أغراض

أخرى. دراساتهم الآن حتى باللغة العربية تشكك فى تراثنا بالكامل، وإنما فى أحسن الظروف نحن عشنا على أساطير كتبها محمد - ﷺ - وأخذها من المصريين القدماء أو أخذها من الأديان القديمة، وعملنا بها عملاً سياسياً لفترة معينة وساعدنا فيها اليهود وساعدتنا بعض الأديان الأخرى.. ولكن أن الأوان لأن نسير فى قالب الحياة الحديثة ونعمل كـ (سفرجية) جيدين فى المطبخ الغربى، وهذا الأمر يحتاج إلى إعادة نظر فيه.. وللأسف النظر الذى تم هو نظر عاطفى، نظر يعتمد الخطابية والشتم، ويعتمد فى كثير من الأحيان التكفير والتجريح، وهذا استفاد من الغرب.

والآن.. أعداد كبيرة من بعض هؤلاء الناس أصبحوا أساتذة كراسى فى الجامعات الأمريكية.. نحن - أنا وبعض الأخوة الموجوبين هنا- درسنا فى أمريكا، ونعرف أن الدارس هناك يعيش ويتعب إلى أن تحف أقدامه- كما يقال- قبل أن يصل إلى منصب حتى أستاذ فى الجامعات الأمريكية، بينما من يشتم الإسلام ولو قليلاً فى الجامعات

العربية، واثرت حوله هالة فى بعض الصحف، ترتب الأمور، وبعد شهر أو شهرين تجده (أستاذ كرسى) مبجل للدراسات العربية أو الأوروبية أو الفلسفية أو الاجتماعية، ويصبح يشار إليه بالبنان، وهناك طبعاً دور للنشر وهى دور معروفة جداً فى بريطانيا مثلاً، حيث هناك أكثر من دار تظهر علينا بكتب الأدب العربى فى طبقات صقيلة وأنيقة، وكلها تشكك فى تراثنا، والآن لها فروع فى عواصمنا العربية والإسلامية.

ونحن عندما نتحدث عن مدينة أفريقية فى الرمال كان لها شأن وأى شأن لا بد أن يثير هذا الأمر فىنا ما أثارته هذه المدينة فى خيال هذا- الآخر- الغربى الذى أراد منها أن ينظر إلى الأمة أو الثقافة التى تواجهه، وأن يتعرف عليها وأن يتخذ منها موقفاً.. وللأسف الموقف الذى اتخذ من ثقافتنا موقف معادى لأسباب عقلية أو غير عقلية يمكن دراستها، ويمكن حتى أن نلوم عليها هذا- الآخر-.

ترميم المعانى أولى من ترميم المباني:

ولكن.. هذا الموقف اتخذ.. نحن أيضاً ننظر إلى

غالب) ولكن فى الهند وفى الصين وفى غيرهما من الأماكن، تراثنا نحن كان يحترم كل هؤلاء.

الإسلام لبناء عالم جديد:

مدينة تمبكتو لم يكن زوارها الذين قاموا بزيارتها، لم يكونوا منبهرين فقط- خاصة علماءنا المسلمين- بحلقات الدراسة فى المساجد وفى الجامعة، وبحلقات الذكر وبمدارس القرآن، بل كانوا منبهرين أيضاً بسهرات الفن فى ليالى تمبكتو والمحاضرات والمناقشات والفنون الأفريقية، هذا التسامح الكبير، وهذه النظرة الواضحة تعطى دائماً فى هذه المدينة وفى غيرها، فى سمرقند أيضاً.. تعطى الصورة الإسلامية الصحيحة لاستعمال فنون الآخرين الذين دخلوا فى أمة الإسلام.. لم نغيّب نحن فنون الآخرين أو ثقافتهم، نحن ذهبنا أبعد من ذلك، حتى الفقه الإسلامى استوعب عادات الآخرين وجعلها جزءاً من التشريع فى إطار المبادئ القرآنية والسنة النبوية.

إذا.. نحن عندنا موقف إيجابى فى بناء عالم جديد،

تمبكتو، ننظر إلى الصورة التى ترسمها لنا هذه المدينة، وهذا الماضى، وهذا الشوق لهذه المدينة. علماؤنا أيضاً اشتاقوا لهذه المدينة كثيراً، وخرجوا منها وتحذثوا عنها، ولكننا اليوم لا بد أن نستجلى فيها هذه الصورة. اليوم الدكتور (عمر الحامدى) أعطانى كتيباً جميلاً لأحد أصدقائنا كتب عن هذه المدينة، وتأسف عليها عندما زارها ونادى بأن نرعم المساجد. ممكن جمعية الدعوة والجماهيرية والجهات الأخرى ساهمت فى ترميم المساجد وترميم الآثار فيها، ولكن الحقيقة أن المطلوب هو ترميم الصورة التى وجدت فى أذهاننا والتعرف على هذه الصورة، والتعرف على ثقافة- الآخر- وأن نقول له: نحن لسنا موضوعاً للبحث الثقافى الذى تريد به أن تتشكل من خلاله ثقافتنا، نحن موجودون بثقافتنا، ونحن مستعدون لأن نشارك فى تكوين صورة لهذا العالم الذى نحياه بمساهمات من تراثنا، فنحن منفتحون وغير منغلقيين ونقبل بكل الثوابت، وبكل الاكتشافات، وبكل الإبداعات والإنتاج العظيم الذى قدمه كل الناس، ليس فقط فى الغرب (لأنه

نحن لا نكفى على أنفسنا، عندما نتحدث عن تراثنا، وعندما نعزّ بشخصيتنا وأصالتنا، نحن نقول للذين يتحدثون عن عالم واحد وفيه ثقافة واحدة، نقول لهم بأنه لا يمكننا إلا أن نبني عالماً للإنسان، ولا نبني عالماً للإنسان الأمريكي فقط، ولا نبني عالماً لليبي فقط، ولا نبني عالماً للمسيحيين فقط، ولا نبني عالماً لليهود فقط.

اليهود ينكلمون كل يوم يقولون: إن العالم سوف يسوده السلام كما قال (بن غوريون) في مذكراته: (عندما تصبح الأمم المتحدة أداة فاعلة، عندما تنتقل إلى -أورشليم- إلى القدس كعاصمة أبدية لإسرائيل) وهذا الكلام قيل قبل أربعين سنة.

هذه برامج تضعها مؤسسات كبيرة، وهذه المؤسسات تستعمل كل شيء، تستعمل الفن والإبداع والموسيقى والعلم، والجامعات والبحوث العلمية ومكافآت الأساتذة، والمؤتمرات، كلها تحتاج دائماً منا إلى نظر وإلى تقدير. واتحاد الأباء والكتاب هو المكان الذي رأيت فيه أننى أعطى كلمة عامة عن مدينة تمبكتو وما تعنيه بالنسبة

لتقافتنا ولنا، وأنبه نفسى وأخوتى وعلماءنا إلى أن الأمر ليس أفكاراً شاردةً تجرحنا بين الحين والآخر فى أيامنا هذه، الأيام التعيسة للعرب الذين يرون هزائم متواصلة لكل شئ فى حياتهم، ولكن هذه أمور مدبرة ومنظمة وفيها تدفق إعلامى وفكرى من جانب واحد. وإذا كان الغربيون قد غضبوا كثيراً عندما قيل إنه يجب أن ننظر فى إطار اليونيسكو، وفى ذلك الوقت كان الاتحاد السوفيتى العظيم يحمل هذا اللواء مع (أحمد مختار أمبو) ومع دول العالم الثالث، ومع الدول العربية لواء، أن لا يكون هناك تدفق إعلامى من جانب واحد، ومع ذلك غضب الغربيون ومؤسسات الإعلام الصهيونية، غضبة كبرى كادت أن تودى باليونيسكو نهائياً لولا وقوف بعض القوى معها.

فما بالك اليوم وهذا التدفق هو تدفق فكرى وصل لاستخدام الخيالة والأشرطة ضد الإسلام والعرب. فالآن المسلم أو العربى بصفة خاصة هو الإنسان الشرير فى كل الأعمال الإبداعية القديمة التى كتبها مفكرون وتحدثوا فيها عن عظمة الإنسان العربى زيفت وغيرت عندما

حولت إلى أعمال إبداعية (سينمائية).

تذكرون (برنارد شو) عندما تحدث عن الإنسان العربي الذى لا يأبه بالمال والذى يحب الكرامة والعزة، غيروا فى شريط الخيالة هذا الشخص بشخص هدى حتى لا يفهم الغربى بأن الإنسان العربى يمكن أن يكون فيه الرجاء.

فنحن إذاً، وأنا أرجو أن يعذرني بعض إخوانى الذين ينتقدوننى دائماً بأننى قد أقوم بوعظ وإرشاد، وأنا بعيد (بالمناسبة) رغم وجودى فى جمعية الدعوة الإسلامية العالمية كأحد موظفيها، ولكننى تعلمت فى الجامعة، وتعلمت الفلسفة، فأنا لا أحسن الوعظ والإرشاد، وأرى أنه جيد لو استطاع الإنسان أن يحسنه، ولكننى أتحدث عن أشياء وشواهد حقيقية وواقعية عن ثقافة- الآخر- الذى نحيا معه، ولا نستطيع أن نغالط أنفسنا لأنه قوى، أو نغالط أنفسنا لأننا ضعفاء ونقبل هذا الأمر دون تمحيص ودون نقد.

نحن نريد أن نكون جزءاً من هذا العالم، ولكن نريد

أن نكون جزءاً من هذا العالم على شروطنا، وأن نقبل شروط الآخرين التى تتفق وشروطنا نحن.. نحن لم نأت من الغاية، ولم نأت من الفضاء الثلجى، ولم نأت من جزر المحيطات النائية التى لا ثقافة حقيقية لها. نحن شاركنا فى بناء هذا العالم على مدى أكثر من ألف سنة.. لنا بصماتنا فى الأدب، وفى الفن، وفى القانون، نحن الذين اخترعنا العلاقات الدولية، واعترفوا بجزء منها، ولم يعترفوا بالأجزاء الكبيرة، وقام شبابنا وعلماؤنا بتجلية هذا الأمر للتاريخ وللناس جميعاً.

فاذاً نحن فى هذه الأمسية الرمضانية وحتى أنهى حديثى فى الوقت المحدد، فإننى أقول، بأن تمبكتو هى مدينة عظيمة، ونفخر بها نحن كمسلمين وكعرب، وكأفارقة، وأنها تثير فى نفوسنا شجوناً كثيرة تتصل بهموم الإنسان وبتقافة الإنسان، وإبداع الإنسان، وتثير فىنا أيضاً التقييم الحقيقى لما فعله- الآخر- بنا، وما يفعله- الآخر- بنا.. إنسان يستعمرك ويقول بأنه يقوم بعملية تهديئة وإحلال للسلام.

تمبكتو مركز فى صحراء قاحلة. لم تكن موجودة قبل الإسلام، بناها وأسسها المسلمون العرب، والأفارقة، والمسلمون من كل حدب وصوب، أوجدوا فيها حضارة بلغة القرآن، لغة العرب، تراث عظيم، يحتاج منا إلى البحث والتتقيب وإدراك لهذه العلوم الكبيرة.. مدينة فى الصحراء.. لكن فيها سعر الكتاب أعلى من سعر الذهب، هذه هى الحضارة الحقيقية، وهذا هو الأمر الذى يثير فى نفوسنا أهمية الثقافة، وأهمية التعرف على الآخرين.

لا شك أننى أطلت.. وأفلقتكم كثيراً.. أرجو المعذرة..
وشكراً لكم...
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.....

لا أحد يمنعه، يشعرك، ويقول ذلك، ويقول إنه يحتلك، أحياناً لتحضيرنا.. وأحياناً تحت مسميات أخرى..

نحن نريد أن نعيش فى عالم فيه فهم حقيقى وموضوعى، وتأسيس حقيقى للعلاقات الإنسانية يكون للجميع فيها دور ، وتكون المشاركة لكل الشعوب، ويكون فيها الحق لكل الناس، ونحن دائماً نقول فى القرآن الكريم خطاباً عاماً للناس جميعاً، وهذا الخطاب له علاقة بكرامة الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (١) و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (٢) وبالتالي نحن لا نستطيع أن ينافسنا أحد عندما نقول بأن تراثنا ليس انكفاءً وعنصرية وإنما هو اتصال حقيقى بالناس جميعاً، بالإنسان فى كل مكان. الإنسان الذى كرمه الله بصرف النظر عن دينه وثقافته الخاصة، وشكله ولونه وأهله وتراجه.. فنحن جميعاً أبناء آدم، وجميعاً لأبد من أن نقوم بإعمار هذه الأرض الإعمار الصحيح.

(١) (الإسراء: ٧٠).

(٢) (الحجرات: ١٣).

الخاتمة

لشيخ الطريقة العزمية

السيد محمد علاء الدين ماضي أبي العزائم

لقد برهنت ثورة الفاتح منذ أيامها الأولى على شعورها العميق بتلك الأبعاد التاريخية لروابطها العريقة بالقارة الأفريقية التي تمثل ليبيا بحق إحدى ركائزها القوية منذ أقدم العصور التي سبقت ظهور الإسلام، كما وضحت ذلك كتابات المؤرخين اليونان ثم الرومان، بل وبرهنت عليه تقاليد الشعب الليبي نفسه، ثم جاء الإسلام الحنيف فأعطى تلك العلاقات التي تربط ليبيا ببقية القارة الأفريقية نفساً جديداً، وقوة لا حدود لها.

لقد اهتمت قيادة ثورة الفاتح المجيدة منذ قيامها بهذه القارة اهتماماً أكيداً، فقد أعلنت هذه الثورة منذ أيامها الأولى أن ليبيا لا تعتبر نفسها حرة ذات سيادة ما دامت القارة الأفريقية لم تتحرر كلها، لذلك اهتمت هذه الثورة بمساندة حركات التحرر الأفريقية في جميع مناطق القارة، ومن أمثلة ذلك مساندة حركات التحرر في جنوب أفريقيا وأنجولا والموزمبيق وناميبيا وزيمبابوي وتشاد.. إلخ.

وبمناسبة اختيار منظمة المؤتمر الإسلامي لمدينة (تمبكتو) المدينة الإسلامية الحضارية لعام ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، فقد تم انعقاد اجتماع القيادة الشعبية الإسلامية العالمية بمدينة (تيمبكتو - مالي)، وحضر قائد القيادة الشعبية الإسلامية العالمية الأخ الثائر معمر القذافي، وألقى خطاباً شافياً جامعاً بعد صلاة المغرب يوم المولد النبوي الشريف ١٢ ربيع أول ١٤٢٧هـ.

ونحن بدورنا نشكر القائد القذافي الذي لولاه لما استطعنا التعرف على هذه الشعوب، ولولا مساعداته لماتت هذه الشعوب جوعاً، أو سقطت فريسة للتبشير النصراني، ومن أمثلة ذلك:

١- عنايته الشديدة بقضية تحرير أفريقيا، وتقديم المساندة لها في هذا المجال لتحقيق سيادتها وكرامتها، كما قدمناه آنفاً.

٢- اهتمامه عملياً بتقديم كل المساعدات التعليمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية لأبناء القارة الأفريقية.

٣- عنايته الكبيرة بقضية الوحدة الأفريقية والتي نجح فيها أكبر النجاح، حيث تمكن من إقناع زملائه قادة القارة الأفريقية بتكوين منظمة تجمع دول الساحل والصحراء

(س.ص). ثم نجاحه فى إقناع هؤلاء القادة بتأسيس (الاتحاد الأفريقى العظيم) الذى يهدف إلى توحيد القارة الأفريقية وحدة حقيقية وليس فقط شكلية، فهو إذن المؤسس الحقيقى لهاتين المنظمتين الأفريقيتين المهمتين.

٤- اهتمامه المستمر بحقن دماء المسلمين وغيرهم بتسوية الخلافات والانشقاقات التى قد تحدث فى صفوف الشعوب الأفريقية، ومثال ذلك جهوده فى تشاد وأفريقيا الوسطى، ومنطقة دول البحيرات الكبرى: كونغو كينشاسا، ورواندا، وبروندى، وساحل العاج، وليبيريا، وسيراليون، والنزاعات بين المغرب والجزائر، والانشقاقات فى السودان.. إلخ.

٥- اهتمامه الأكيد بالدعوة الإسلامية حيث جعل من نفسه شخصاً داعياً إلى الإسلام، وكلنا نعرف أن عدداً كبيراً من الأخوة الأفارقة اعتنقوا الإسلام الحنيف على يد القائد مباشرة، ومن بين هؤلاء رؤساء دول أفريقية وشخصيات سياسية وغير سياسية أفريقية مهمة.

التنصير بالمساعدات:

أقمنا فى تمبكتو فى فندق متواضع جداً، رغم أنه هو

الأفضل بالنسبة لحالة الفقر المدقع التى تعيشها المدينة، والتقىنا بشاب وفتاة من إسبانيا اسمهما كارلوس ومارتا (صورة الغلاف) جاءا لتقديم المساعدات لشعب تمبكتو، وبسؤالهما عن سبب المجئ وكيفيته؟.

قالا: إنهما جاءا على نفقتهما الخاصة، وإجازة من أعمالهما، ويقومان على نفقتهما الخاصة.. ولكن المساعدات التى يقدمانها لشعب تمبكتو تتبرع بها شركة كوكا كولا وشركة **Bic** للأقلام الجافة.. وطبعاً هى مقدمات لتنصير المسلمين لا تخفى على ذى عينين!!.. وتساءلت.. لماذا ليس عندنا هذا النشاط فى التبشير للإسلام؟

والإجابة تتلخص فيما يلى:

١- الركون إلى أن الإسلام هو دين العقل والفتوة، ولا يحتاج لمبشر مسلم، لأنه سهل الإقناع بعكس الآخرين.. وهذا قصور.

٢- بخل كثير من الأثرياء المسلمين عن أداء الواجب المفروض عليهم كالزكاة (حق المسلمين)، والصدقات (حق غير المسلمين علينا فى نشر الإسلام)، والضرائب (حق الدولة).

٣- عدم وجود وعى لدى الناس بأهمية التبشير الإسلامى، وليس هناك حماس لدى الدعاة لنشر الدعوة الإسلامية، فلو أن الأمة الإسلامية خصصت جزءاً يسيراً من إنفاقها على التدخين أو التليفون المحمول، أو الأسلحة الخردة التى يستوردونها من أعدائهم، أو الجوائز التى تخصص للاعبين واللاهين لأحيينا إخوة لنا يموتون جوعاً أو جهلاً أو فتنة!!.

٤- تفرق كلمة المسلمين بسبب الفكر الوهابى، الذى يقسم الأمة إلى كافر ومشرك ومبتدع، وليس أدل على ذلك مما شاهدناه فى مالى التى لم تعرف الإسلام إلا على يد الطرق الصوفية، حيث يقوم دعاة الوهابية بتكفير الصوفية واستغلال حالة الفقر لفرض سمومهم وتمهيد الطريق للمنصرين.

والأمل.. أن تثبت روح الدعوة الإسلامية فى نفوس شبابنا لحماية أبناء تمبكتو من كارلوس ومارتا وأمثالهما، وأن يمولهم رجال الأعمال المتخمين فى بلادنا.. وأن تخصص الدول البترولية جزءاً من إنتاجها لمساعدة هؤلاء الفقراء فى مالى والنيجر وتشاد.. إلخ.

وأخيراً.. أشكر السيد الدكتور العالم العامل محمد أحمد الشريف الأمين العالم لجمعية الدعوة الإسلامية العالمية على أنه أعطانا هذه الصورة البارزة الواضحة عن مدينة تمبكتو تاريخاً وواقعاً، رغم مهامه الجسيمة حيث إنه الأمين العام للقيادة الشعبية الإسلامية العالمية وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية التى لا تألوا جهداً فى العمل بأفريقيا وسائر أنحاء العالم فى نشر الإسلام ورعاية المسلمين تحت رعاية وتوجيهات القائد، وتقوم بواجبها خير قيام، وقد نجحت فى ذلك نجاحاً كبيراً، أعطاهما شهرة واسعة، وتأييداً عظيماً على المستويات الشعبية والرسمية، حتى أصبحنا نرى الكثير من رؤساء الدول الأفريقية غير المسلمين يؤيدون بقوة جهود الجمعية لصالح شعوبهم. حتى أصبحت هى الأمل فى غدٍ مشرقٍ، وهى النور وسط الظلام التى يحيط بالبشرية أجمع.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا رسول الله وعلى آله أجمعين.